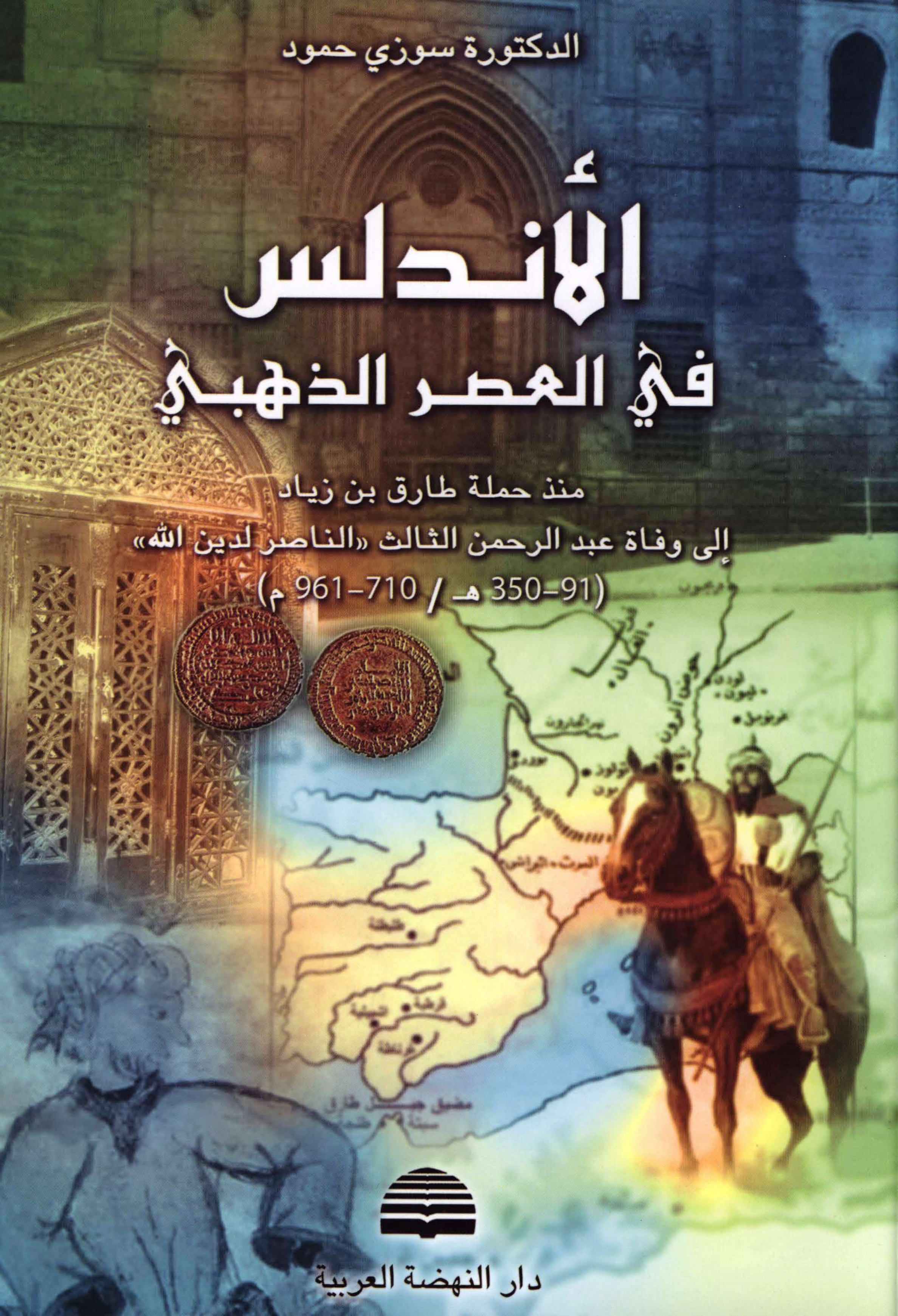


الدكتورة سوزي حمود

الأندلس في العصر الذهبي

منذ حملة طارق بن زياد
إلى وفاة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»
(91-350 هـ / 710-961 م)

دار النهضة العربية

الأندلس

في العصر الذهبي

منذ حملة طارق بن زياد

إلى وفاة عبد الرحمن الثالث "الناصر لدين الله"

(91ـ 350هـ / 710ـ 961م)

الدكتورة سوزي حمود

أستاذة التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية



دار النهضة العربية

رقم الكتاب : 19145
اسم الكتاب : الأندلس في العصر الذهبي
المؤلف : د. سوزي حمود
الموضوع : تاريخ
رقم الطبعة : الاولى
سنة الطبع : 1430 هـ ـ 2009 م.
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات : 124

منشورات : دار النهضة العربية
بيروت – لبنان

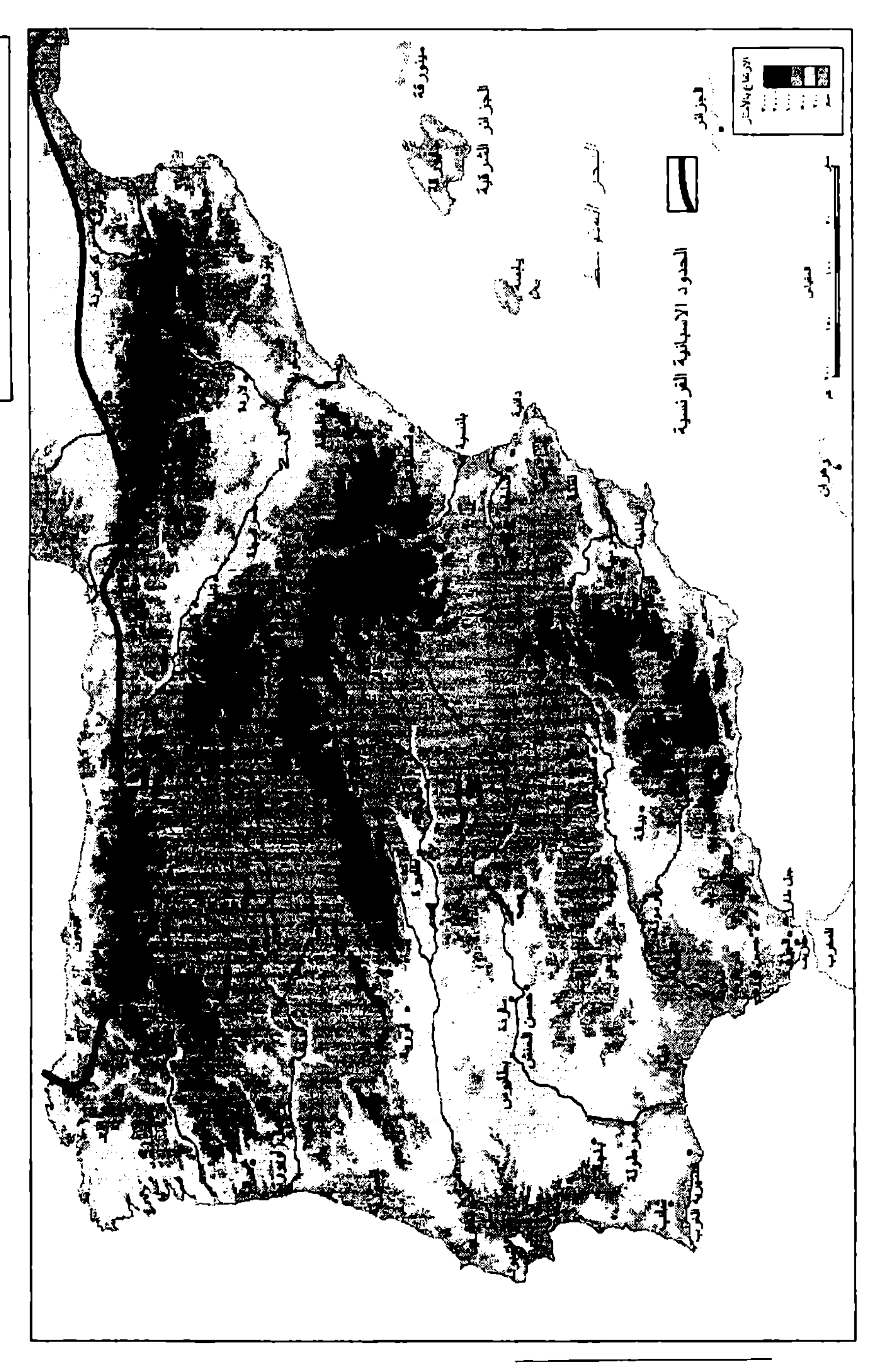
الزيدانية – بناية كريدية– الطابق الثاني
تلفون : 736093 / 743167 / 743166 1 961 +
فاكس : 736071 / 735295 1 961 +
ص.ب 0749– 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 – لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

ISBN 978-9953-537-13-9

إهداء

إلى أمي التي منحتني الحب والحنان..
وكانت لي منارة الدرب الطويل المليء بالصعوبات..
وإلى من أسهم في دعمي ورأيت فيه ومعه
العالم بشكل أفضل..

أهدي هذا العمل المتواضع.



(1) أطلس العالم العربي والعالم: مؤسسة جيوبروجكتس، طبعة سابعة، بيروت 1996، ص 114.

المقدمة

شغفت بتاريخ الأندلس، وأنا تلميذة في «فكتوريا كولدج» بالاسكندرية، حيث حصلت على الثانوية العامة، قبل أن أعود إلى بيروت، لألتحق طالبة بقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الانسانية (الفرع الأول) التابعة للجامعة اللبنانية، سنة 1996، لألتقي مجدداً مع تاريخ الأندلس، في السنة المنهجية الثالثة، فازداد شغفي بهذا التاريخ، واخترت منه عنواناً للرسالة التي حصلت معها على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الاسلامي بدرجة جيد جداً، سنة 2003.

ويشاء الحظ، بعد حصولي على الدكتوراه في التاريخ الاسلامي مع مرتبة الشرف الأولى، أن ألتحق ثانية بقسم التاريخ عينه، سنة 2008، ولكن بصفة أستاذة لمادة تاريخ المغرب والأندلس وحضارتهما، في السنة المنهجية الثالثة أيضاً. فنبشت الأوراق التي كنت أسطرها، من حين لآخر، في أبحاث متنوعة، لأضع هذا الكتاب الذي حمل اسمه سنة 91هـ/ 710م، ثم إعادة عبد الرحمن الثالث توحيد الأندلس وإعلانه الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة سنة 316هـ/ 929م.

وارتأيت تقسيم هذه المرحلة المفصلية في تاريخ الأندلس، والتي استمرت طيلة 225 سنة هجرية/ 219 سنة ميلادية، إلى أربع فترات تاريخية، هي:

الفترة الأولى: استمرت حوالي خمس سنوات (91 ــ 96هـ/ 710 ــ 715م). وتتعلق هذه الفترة بالفتح العربي الإسلامي للجزء الممتد إلى جنوب اسبانيا، ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية بارزة في أيام العرب، مثل: قرطبة، إشبيلية، غرناطة، مالقة، المرية، وغيرها... وهذا الجزء حمل اسم الأندلس، وليس اسبانياً

بأسرها هي التي حملت هذا الاسم.

الفترة الثانية: استمرت نحو ست عشرة سنة (99 ــ 114هـ/ 717 ــ 732م). وتؤرخ للتوسع العربي في أوروبا بعد فتح الأندلس، منذ اغتيال والي الأندلس عبد العزيز بن موسى، وتولي أيوب بن حبيب اللخمي ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي حل مكانه السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد في موقعة تولوز في أول محاولة جدية لاختراق جبال البيرينيه إلى أوروبا، سنة 103هـ/ 721م. وكان عبد الرحمن الغافقي الذي قاد عملية الانسحاب بسرعة إثر هزيمة تولوز، هو الذي اختاره جرجي زيدان بطلاً لروايته التي تحمل اسمه مع اسم قائد الفرنجة شارل. فقد كان عبد الرحمن الغافقي الرجل البارز في الجيش والأوفر حظاً في خلافة السمح، غير أن السياسة القبلية أبعدته عن ولاية الأندلس طيلة تسع سنوات حتى تولاها سنتي 113 ــ 114هـ/ 731 ــ 732م، ليتحول خلالها إلى قائد كبير وأعظم ولاة الأندلس على الإطلاق، بدا قادراً على تجميد الصراعات وتعبئة كل الأطراف وتجنيدها في مشاريع التوسع في أوروبا، فاجتازت جيوشه وادي الرون، في عمق فرنسا حتى اللوار، قبل أن يسقط أخيراً في بواتييه التي أطلق عليها المؤرخون العرب اسم «بلاط الشهداء»، وهي الموقعة التي انتصر فيها الملك شارل ليعرف منذ ذلك الحين بـــ «مارتل» أي «المطرقة».

الفترة الثالثة: استمرت حوالي مائة وثلاث وسبعين سنة (138 ــ 172هـ/ 756 ــ 788م)، وتؤرخ لتأسيس الامارة الأموية في الأندلس، على يد الأمير عبد الرحمن الأول الداخل، وهي الامارة التي شهدت عصرها الذهبي مع الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط (206 ــ 238هـ/ 822 ــ 852م)، قبل أن تضعف السلطة المركزية إثْر وفاته ليبدأ تأسيس الدويلات المستقلة عهد ابنه الأكبر محمد ثم ولديه المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد.

الفترة الرابعة: استمرت زهاء نصف قرن من الزمان (300 ــ 350هـ/ 912 ــ 961 م)، وتتعلق بعهد عبد الرحمن الثالث ولقبه «الناصر لدين الله»، وهو الشخصية الأكثر جاذبية وتألقاً في تاريخ الأندلس الأموية، وقد توج عهده الطويل بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ/ 929م.

وخصصت فصلين اثنين للفترة الأولى، يتعلق أولاهما بالدوافع التي أدت إلى فتح الأندلس، وثانيهما بدور موسى بن نصر وطارق بن زياد في هذا الفتح. كما خصصت فصلاً واحداً لكل فترة من الفترات الثلاث الأخرى، فوضعت للفصل الثالث عنوان «فشل فتح بلاد غالى» (فرنسا) ونمو حركة المقاومة المسيحية، وللفصل الرابع عنوان «الامارة الأموية في الأندلس، وللفصل الخامس والأخير عنوان «عبد الرحمن الثالث» الناصر لدين الله وإعلان الخلافة الأموية في الأندلس.

تقتضي الموضوعية والدراسة الأكاديمية، العودة إلى المصادر والمراجع التي تتعلق بتاريخ الأندلس. علماً أن أول كتاب وصل إلينا عن تاريخ الأندلس، كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وعنوانه «فتوح مصر والمغرب والأندلس». وذلك قبل أن يبدأ الأندلسيون أنفسهم بكتابة تاريخهم، مثل كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لأبي بكر محمد القرطبي المعروف بابن القوطية، وكتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس» لمؤلف مجهول يبدو أنه توفى بعد قليل من سنة 350هـ/961م، لأنه يؤرخ لفتح المغرب والأندلس عهد موسى بن نصير ويتوقف عند وفاة الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 350هـ/961م. هذا فضلاً عن كتاب «نقْطُ العروس في أخبار بني أمية في الأندلس» لأبي محمد بن حزم القرطبي المتوفى سنة 456هـ/ 1063م.

ويعتبر أبو مروان بن حيان القرطبي المتوفى سنة 469هـ/ 1076م، من أهم مؤرخي الأندلس، وله كتاب «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» ويتعلق بتاريخ الأندلس منذ الفتح العربي نهاية القرن الأول الهجري/ مطلع القرن الثامن الميلادي حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

وتكثر المصادر والمراجع التي يمكن الاستعانة بها، مثل كتاب «بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس» الذي وضعه أحمد بن يحي بن عميرة الضبي، ويتضمن تراجم الملوك وعلماء الأندلس والوافدين إليها حتى وفاته سنة 598هـ/1202م. كما وضع محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، كتاب «الحلة السيراء»، ويتناول فيه أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي حتى وفاته سنة 658هـ/1260م.

ولا يمكن اغفال مدرسة جديدة في التاريخ، استفادت من المحن والخطوب التي مرت بالمغرب والأندلس، لتتجه اتجاهاً فلسفياً على علل الحوادث وأسباب قيام الدول وسقوطها ومظاهر العمران فيها. ورائد تلك المدرسة عبد الرحمن بن خلدون (توفى سنة 808هـ/1406م)، في «مقدمة» تاريخه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر». وهي المقدمة الخالدة التي لم يكتب مثلها أحد من المؤرخين العرب والمسلمين، وتضمنت معلومات عامة عن حضارة المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيها، وتمثل الجزء الأول من تاريخه، في حين تتناول الأجزاء الستة الأخرى أخبار العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة حتى عصره، ثم أخبار البربر ودولهم في بلاد المغرب. ومن رواد هذه المدرسة التاريخية، صديقه ومعاصره الوزير لسان الدين بن الخطيب (توفي سنة 776هـ/1374م)، وأهم كتبه: «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» الذي يتحدث فيه عن مملكة غرناطة وصفات أهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكها. وكتاب «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، وهو عبارة عن تراجم ملوك غرناطة وأمرائها وعلمائها وجميع الذين وفدوا عليها، مرتبة أسماؤهم حسب حروف المعجم. وكتاب «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام»، وهو تاريخ عام في ثلاثة أقسام، الأول عن المشرق العربي الإسلامي، والثالث عن المغرب العربي الإسلامي، في حين يعتبر القسم الثاني أول تاريخ شامل للأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي حتى وفاته سنة 776هـ/ 1374م، وقد أضاف موجزاً عن تاريخ الممالك المسيحية في اسبانيا مثل قشتالة وأرغون والبرتغال.

وتأثر أحمد المقري (توفي سنة 1041هـ/ 1631م) بشخصية لسان الدين ابن الخطيب، فوضع كتاباً عنه يتناول حياته وإنتاجه، وقد مهد له بتاريخ عام للأندلس، وسماه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، فأصبح من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الأندلس والمغرب.

أما أول مرجع علمي لتاريخ العرب في الأندلس، فقد ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد المستشرق الهولندي رينهارت دوزي **REINHART DOZY** الذي استعان بالمصادر العربية واللاتينية، واختار له عنوان «تاريخ مسلمي

اسبانيا» HISTOIRE DES MUSULMANS D'ESPAGNE، وهذا المرجع يتناول تاريخ العرب في الأندلس، منذ الفتح حتى عصر ملوك الطوائف. دون إغفال المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال LEVI-PROVENÇALالذي وضع كتاب «تاريخ اسبانيا المسلمة» ،HISTOIRE DE L'ESPAGNE MUSULMANEوهو تاريخ عام للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة422 هـ1031 /م.

وإذا كانت المصادر العربية ،قد اعتمدت التاريخ الهجري وحده ،وهذا أمر طبيعي ،يماثل اعتماد المصادر والمراجع الإسبانية والفرنسية على التاريخ الميلادي وحده، إلا أن مثل هذا الاعتماد وحده، لا يعتبر طبيعيا في المراجع العربية التي تعتمد في الكتاب الواحد، التاريخ الهجري على حدة، أو التاريخ الميلادي على حدة، وأحياناً تجمع بينهما ،فيضيع القارىء العربي، وهو لا يرتاح إلا عندما يرى بأم عينيه التاريخين الهجري والميلادي معاً، لذلك اعتمدت التاريخ الهجري في مكان الصدارة، وموقع الأولوية في كتابة هذا البحث وكان كتاب «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية» الذي وضعه اللواء محمد مختار باشا (توفي سنة1315 هـ/1897م) خير معين لي في هذا المجال.

ومن خلال هذه المصادر والمراجع أدركت أهمية كتابة تاريخ الأندلس ،لما يحتويه من الفتح العربي «العجيب» على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ،حتى تحول هذا الفتح إلى ما يشبه الأسطورة، لا تقلُّ عنها صورة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي الذي لو لم يهزم في بواتييه لفتح قارة أوروبا بأسرها .كما أدركت أن المشرق العربي الإسلامي، قد حظي بجانب كبير من اهتمام المؤرخين ،وأن القارىء العربي لتاريخ هذا المشرق، يخيل إليه أن الخلافة الأموية غابت إلى الأبد مع سقوطها في دمشق سنة132 هـ/750 م .فإذا بقارىء تاريخ المغرب العربي الإسلامي ،يدرك أن هذه الخلافة الأموية استمرت في الأندلس وأصبحت عاصمتها قرطبة ،لتعاصر الخلافة العباسية ،وعاصمتها بغداد ،ولتعاصرهما معاً خلافة فاطمية في القاهرة تنتظر الفرصة للإطاحة بهما.

إن التاريخ الحقيقي للأندلس الذي يجدر كتابته بدقة وموضوعية ،تشير إليه عظمة الحضارة العربية الإسلامية التي تميز بها نتيجة تطعيمها بزبدة حضارة المشرق

العربي الإسلامي عن طريق العلماء والأدباء والفلاسفة وأهل الفن الذين تدفقوا على الأندلس في موجات متتابعة، عززت التواصل المستمر بين المشرق والمغرب. وما زالت الآثار العربية الإسلامية حتى اليوم في اسبانيا ،تحكي حكاية الأندلس ،وكأنها تطلب المزيد من عناية المؤرخين العرب لإعادة كتابة التاريخ والحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي بشكل عام والأندلس بشكل خاص، لإظهار مدى تفوق حضارتنا العربية الإسلامية في الأندلس على الحضارة الأوروبية، ومدى الدور الذي قام به الأندلس كحلقة اتصال بين قارتي آسيا وأفريقيا من جهة وبين قارة أوروبا من جهة ثانية، حيث عبرت تأثيرات الحضارة الإسلامية المتفوقة مضيق جبل طارق إلى قارة أوروبا التي كانت تغط في سبات الجهل وظلمات الانحطاط.

ومن خلال هذه الفصول الخمسة ،توصلت إلى استنتاجات عامة، أتمنى أن أكون معها، قد توصلت إلى الهدف المنشود من هذا الكتاب التاريخي الجديد في عنوانه ومضمونه. ففيه يضطر الباحث للعب دور الناقد التاريخي باستمرار وهو ينبش ويحلل في المصادر والمراجع ليحيط بهذه المرحلة الهامة من تاريخ الأندلس، والتي بدأت مع قائد بربري دخل اسمه في الذاكرة العربية الشعبية وهو طارق بن زياد ،وانتهت مع أمير أموي عربي حوّل امارة الأندلس إلى خلافة أموية عاصمتها قرطبة، منافساً للخلافة العباسية في بغداد، وهو عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله».

وأرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت في ما سعيت إليه.

الفصل الأول

دوافع فتح الأندلس

1 ـ اسم الأندلس
2 ـ الصراع الداخلي وأسطورة فلورندا
3 ـ دور شخصية يوليان الغامضة
4 ـ دور اليهود في التمهيد للفتح
5 ـ الدوافع العربية الاسلامية

تعددت الدوافع التي أدت إلى فتح الأندلس في فترة قصيرة لا تتعدى السنوات الست (91 ــ 96هــ/ 710 ــ 715م). وتأتي في طليعتها: الصراع الداخلي في اسبانيا، وانقسام المجتمع الاسباني إلى طبقات متنافرة، وتحرك اليهود للتخلص من حكم القوط، وأهمية دور يوليان حاكم سبتة في التمهيد للفتح العربي الإسلامي، دون إغفال الدوافع العربية الإسلامية.

1ــ اسم الأندلس

إن مدلول كلمة «الأندلس» الحقيقي، والمتداول حتى اليوم، فيقصد به جزء فقط من اسبانيا وهو ذلك الجزء الممتد إلى الجنوب منها، ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية بارزة في أيام العرب، مثل قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية[1]، وغيرها، فلم يكن العرب، يتداولون لفظة الأندلس في التعبير عن اسبانيا وهو الاسم القديم «اشبانية» الذي استعمله الرومان[2].

أطلق لفظ الأندلس، أول الأمر، على شبه جزيرة ايبيرية كلها أو إبارية[3] كما ورد في المصادر العربية، عندما كانت بيد العرب المسلمين. وهي تقع في جنوب غرب أوروبا، ويحدها من الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن فرنسا شمالاً سلسلة جبال البُرت (البيرينيه) التي جعلتها في شبه عزلة

---

(1) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار. القاهرة 1937، ص 66.

(2) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، دار النهضة العربية ــ بيروت الطبعة الثالثة 1987، ص 66.

(3) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 2.

عن سائر دول القارة الأوروبية. في حين لا يفصلها عن السواحل الشمالية للمغرب، سوى بحر الزقاق[1]، أو مضيق جبل طارق، وهو الإسم الذي غلب عليه منذ الفتح العربي الإسلامي.

ويعتبر مضيق جبل طارق بمثابة حلقة الوصل بين المغرب والأندلس. فالجبل يقع في اقصى جنوب اسبانيا، ويصل ارتفاع بعض قممه إلى أربعمائة وأربعين متراً، واسماه الفينيقيون «الجبل المجوف» MONS CALPE نظراً لوجود مغارة كبيرة فيه[2]. وبعد الفتح العربي الإسلامي، أطلق عليه اسم الصخرة وجبل الفتح لتغلب عليه تسمية جب طارق في جميع اللغات GIBRALTAR نسبة إلى فاتح الأندلس طارق بن زياد. أما المضيق فيبلغ طوله حوالى ثمانين كيلو متراً، ولا يزيد عرضه في أضيق جهاته عن خمسة عشر كيلو متراً. لذلك يمكن القول أن مسافة مضيق جبل طارق التي تفصل المغرب عن الأندلس، مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما. ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوروبي حول السيطرة على المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين: عدوة المغرب وعدوة الأندلس، والعدوة معناها الجانب أو الشاطىء[3]. وهذا يعني أن اسبانيا أو الأندلس، هي أكثر انفتاحاً على المغرب، منها على فرنسا وبقية الدول الأوروبية.

أما كلمة «الأندلس»، فاشتقها العرب المسلمون من كلمة «وندلوس»، اسم إحدى قبائل الجرمان المعروفة بـــ «الأندليش» «الوندال»، وهي التسمية التي عربت مع الفتح العربي الإسلامي إلى «الأندلس» أو «الأندليش»[4].

ثم أخذ المدلول الجغرافي للفظ الأندلس، يقل شيئاً فشيئاً مع تراجع السيادة العربية الإسلامية، حيث أصبح هناك اسبانيا الإسلامية أو الأندلس في المناطق

---

(1) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1949، ص 28.

(2) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، 121.

(3) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية 1968، ص 22.

(4) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 2.

الجنوبية، واسبانيا المسيحية في المناطق الشمالية. وبعد سقوط مملكة غرناطة، وهي آخر مملكة إسلامية في جنوب شرق اسبانيا، ضاعت الأندلس نهائياً سنة 897هـ/ 1492م، ليطلق الإسبان، منذ ذلك التاريخ، إسم اندالوثيا ANDALUCIA على الولايات الجنوبية التي تشمل قرطبة وأشبيلية وغرناطة.

2 ـ الصراع الداخلي وأسطورة «فلورندا»

كان ملك الاسبان عام الفتح، الملك رودريك الذي يسميه العرب لذريق، وهو الذي اغتصب الملك اغتصاباً سنة 90هـ/ 709م، مع أنه لم يكن من العائلة المالكة، مما جعل أبناء الملك السابق ينقمون عليه[1].

الملك السابق هو ويتيزا WITIZA الذي كان على عرش اسبانيا، وهو الملك قبل الأخير من ملوكها، حيث وصفته بعض الروايات بأنه كان ملكاً سيئاً مشغولاً بأموره الخاصة[2]، ومن المعتقد أن الكنيسة كانت وراء هذه الحملة عليه، بسبب موقفه المتشدد من امتيازات رجال الدين وتدخلهم في شؤون الحكم، وسياسته المتسامحة مع أصحاب الأديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة[3]. وكان ذلك حافزاً لاستعداء الكنيسة والإطاحة به بمساعدة رودريك RODRIGO، أحد قواد الجيش، الذي نجح بصعوبة في إزاحته عن العرش والجلوس مكانه.

والحقيقة أن «أبناء» الملك السابق ويتيزا، حملوا راية المعارضة ضد الملك رودريك، بمساعدة أسقف طليطلة، وبدعم من صغار رجال الدين المؤيدين لسياسة الملك السابق، فاستمر الوضع الداخلي في دولة القوط ممزقاً تتجاذبه رياح الحرب الأهلية بين وقت وآخر[4].

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 7.

(2) محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، طبعة رابعة 1969. ص 32.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت 1950. ج 2، ص 4.

تحول مذهب دولة القوط في مجمع طليطلة سنة 578م، إلى الأتناسيوسية (الكاثوليكية في ما بعد).

(4) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص 68.

وضع جرجي زيديان، رواية عن فتح الأندلس، وهي تتعلق بشكل خاص بقصة الحب بين فلورندا ابنة يوليان وألفونس[1]، مشيراً إلى محاولة الملك رودريك الاعتداء على فلورندا وامتناعها عنه، فإن مثل هذه القصة منقولة عن الرواية التاريخية التي تقول أن يوليان، وكان حاكماً شبه مستقل على الشريط الساحلي بين طنجه وسبته، أرسل ابنته فلورندا إلى بلاط الملك القوطي على عادة الأسر النبيلة للتأدب بآداب البلاطيين وصيفات القصر، فرآها رودريك، وكانت تتمتع بحظ وافر من الجمال، فاعتدى عليها[2].

ونحن إذا سلمنا بدور يوليان في عملية الفتح العربي الإسلامي لاسبانيا، وهو دور محسوس، إلا أن حكاية فلورندا ابنته، ومحاولة الانتقام لشرفه الملوث من الملك رودريك، لا تعدو أن تكون سبباً واهياً، في حال إثباتها، وهو أمر مشكوك فيه، على أن انتفاء أسطورة فلورندا، لا يعني غياب دور يوليان في عملية الفتح، لأن اتصالاته مع خصوم الملك القوطي في طليطلة وحملهم على التعاون مع العرب، كأن لها صداها النفسي المؤثر، حيث اعتقد هؤلاء أن دخول حلفائهم إلى اسبانيا، لن يكون أكثر من حملة تأديبية سرعان ما تنتهي لمصلحتهم.

ولا ريب أيضاً أن يوليان كان حريصاً من وراء ذلك، على إنقاذ رأسه، بعد أن أصبح العرب المسلمون أسياد المنطقة بكاملها، فأراد التودد إليهم واكتساب ثقتهم، دون أن يكون لديه خيار آخر أقل صعوبة في ضوء الواقع الجديد[3].

وعلى الصعيد الاجتماعي، كان المجتمع القوطي يتالف من أربع طبقات جعلته منقسماً إلى وحدات غير متماسكة تتصارع في ما بينها، وهي: طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة التجار والزراع وصغار الملاك وطبقة العبيد.

والحقيقة أن القوط الغربيين، عندما استقروا في جنوب اسبانيا، لم يغيروا كثيراً من نظم المجتمع التي كانت سائدة زمن الحكم الروماني، فظلت طبقة النبلاء

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 8 ـــ 9.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس. دار النشر للجامعيين. بيروت (بدون تاريخ)ن ص 34.

(3) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص 72.

على ما كانت عليه من الغنى والنفوذ، وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من هذه الطبقة عن طريق الانتخاب لا الوراثة(1) على شرط أن يكون قائداً شجاعاً(2). ومن هذه الطبقة أيضاً يتم اختيار حكام الأقاليم والمدن، فقد كانت اسبانيا القوطية تضم عدة أقاليم PROVINCIAE يحكم كل منها دوق DUX، وكل إقليم يشتمل على عدد من المدن CIVITATES يحكم كل منها قومس COMES، ويعاونهم طائفة من الموظفين(3).

وظلت طبقة التجار والزراع وصغار الملاك تعيش تحت رحمة طبقة النبلاء التي تتحكم بالإقطاعيات الكبرى، بعد أن اغتصب القوط من الزراع الأحرار أراضيهم واستقروا فيها(4).

أما طبقة العبيد «الأرقاء»، فهي أكبر الطبقات عدداً، تعد بالآلاف، ويعمل أفرادها في فلاحة أراضي الأغنياء والنبلاء الذين يسيئون معاملتهم، ويعتبرونهم جزءاً من ممتلكاتهم، حيث لا يوجد لهم حقوق، فلا غرو أن يتحين هؤلاء العبيد الفرصة للتخلص من هذا الوضع(5) وبذلك يمكن أن نحصر هذه الطبقات الثلاث في طبقتين هما: طبقة الأحرار وطبقة العبيد، وهما طبقتان متحاجزتان لا يمكن الربط بينهما حتى عن طريق الزواج(6).

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 34.

(2) إبراهيم طرخان: دولة القوط الغربيين، القاهرة 1958، ص 134.

(3) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 21 ــ 22.

(4) Reinhart Dosy: Histoire Des Musulmans d'Espagne, Leyde 1932, T1 P. 265.

(5) Aguado Bleye: Manuel De La Historia De Espana, Madrid 1947, 263. P. T1

نقلاً عن: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، دار النهضة العربية بيروت 1981م، ص 64.

(6) Reinhart Dosy: Histoire Des Musulmans d'Espagne, P. 15.

Julian Marie Rubio: Historia De Espana; Barcelona 1932. T2, P. 15.

نقلاً عن: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 64.

ولا يمكن إغفال دور طبقة رجال الدين التي أصبح لها شأن كبير بعد تحول القوط إلى الكاثوليكية، ونبذهم المذهب الأريوسي. فسيطرت هذه الطبقة روحياً ومادياً، فهي تملك الأراضي الواسعة المعفاة من الضرائب والأوقاف التابعة للكنائس والأديرة، وأخذت تعمل لمصالحها الخاصة دون النظر لمصالح الشعب[1]. وشكل كبار القساوسة الكاثوليك مجلساً يعقدونه في طليطلة للنظر في أمور الكنيسة، ما لبث أن تحول إلى مجلس سياسي ديني، ثم إلى مجلس طيطلة الذي يضم النبلاء والأساقفة ولا يجتمع إلا إذا دعاه الملك للانعقاد، وقراراته تؤلف القانون المدني لدولة القوط[2].

وعلى الصعيد السياسي، ضعفت الروح الحربية عند القوط الذين استغرقوا في حياة الترف، في الوقت الذي كثرت فيه المؤامرات والمنافسات الدموية بين المرشحين للعرش، كما نمت فيه قوة الكنيسة التي أخذت تتدخل في الشؤون السياسية للدولة. فلا غرو أن تبلغ اسبانيا غاية السوء في نهاية عهد إخيكا EGICA (68 ـ 81هـ/ 687 ـ 700م)، وبداية عهد ابنه ويتيزا WITIZA، أو غيطشة حسب التسمية العربية، الذي تولى الحكم منذ شوال 81هـ/ تشرين الثاني 700م حتى وفاته سنة 90هـ/ 708م، تاركاً ثلاثة أبناء صغار، أكبرهم المند OLMUNDO وأرطباس ARTAVASDES ووقلة ACHILA[3].

ويبدو أن مجلس طليطلة أفتى بخلع ويتيزا عندما أقدم على تعيين ابنه الطفل وقلة ولياً للعهد من بعده تحت وصاية عمه رخشندش RECHESINDO، واتفق صدور القرار قبل وفاة غيطشة مباشرة، مما أدى إلى تحرك قادة الجيش وكبار النبلاء الطامعين في العرش، لاستصغارهم أبناء ويتيزا «غيطشة» الثلاثة.

والأرجح أن الكنيسة أطاحت بالملك ويتيزا بسبب موقفه المتشدد من امتيازات

---

(1) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 26.

(2) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 64.

(3) أطلق ابن القوطية عليه اسم رمله ROMULO، والصواب وقلة.

ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 2.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة 1949م، ج 1 ص 240.

رجال الدين وسياسته المتسامحة مع أصحاب الأديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة[1]، فاعتبرته ملكاً سيئاً مشغولاً بأموره الخاصة[2]. وعندما اندلعت الثورة في طليطلة، اضطر أبناء ويتيزا «غيطشة» الثلاثة للفرار مع الوصي إلى جليقية. وهذا ما سهل الأمر، أمام رودريك RODRIGO أو لذريق حسب التسمية العربية، وهو دوق باطقة وحاكمها بقرطبة، أن ينتزع الملك من وقلة بعد إنزاله الهزيمة في الوصي رخشندش[3] الذي قتل في المعركة وتفرق أتباعه. فالتجأ وقلة عند يوليان حاكم سبتة، بينما استبقى رودريك ولدي ويتيزا الآخرين إلى جانبه، وهما المند وأرطباس.

وبذلك انقسم الجيش والمجتمع الإسباني فريقين، أحدهما يوالي الملك الجديد رودريك، والآخر يؤيد الملك المخلوع وقلة[4]، فدخلت البلاد في فوضى فقدت معها وحدتها السياسية، وفسدت حياتها الاجتماعية. في حين كان المغرب تحت الحكم العربي الإسلامي، يمثل قوة متماسكة عمادها البربر والعرب تحت راية الإسلام، وينتظر الفرصة السانحة لعبور المضيق وفتح الأندلس.

3 ــ دور شخصية يوليان الغامضة

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 58هــ/ 704م، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك الذي أرسل موسى بن نصير لإتمام فتح المغرب، حيث لم يبق في شمال إفريقيا إلاّ مدينة سبتة التي يحكمها يوليان والد فلورندا. وكان طارق بن زياد الذي ينتمي إلى قبيلة الصدف، إحدى قبائل البربر[5]، وقد ولاه موسى على طنجة وأعمالها، وترك معه تسعة عشر ألف فارس من البربر ممن أسلموا. وتعاون يوليان مع موسى

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 4.

(2) محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج 1 ص 32.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 3.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1 ص 235.

(4) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد 1867، ص 8.

(5) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 93.

بن نصير الذي «رأى أن يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين من غير العرب، ولم ير خيراً من طارق يوليه تلك الحملة، فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر، وفيهم بعض العرب، وسلم قيادتهم إلى طارق، وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق إلى الأندلس، فعبره في سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلاً على شاطئه وسمي منذ ذلك اليوم جبل طارق»[1].

صحيح أن الجبل عرف بجبل طارق، ومضيق بحر الزقاق بمضيق جبل طارق، إلا أنه يقتضي تاريخياً، توضيح شخصية يوليان من جهة، وهل «جرب موسى بن نصير فتح اسبانيا برجال من البربر والموالي المسلمين غير العرب»، كأنه أراد إرسالهم إلى الموت حفاظاً على أرواح العرب. إن شخصية يوليان الغامضة، رغم الأخبار الكثيرة عنه، وحسب المصادر القديمة، توحي بأنه وراء فتح الأندلس لاعتبارات شخصية متمثلة بقصة أو أسطورة ابنته فلورندا، وفي بعض الأحيان سياسية، حتى اختلط الأمر على المؤرخين، فيما إذا كان بيزنطياً يمثل آخر سيادة البيزنطيين في أفريقية، أم قوطياً يتبع مملكة القوط في اسبانيا، أم بربرياً يجسد سيادة البربر على أرضهم إلى آخر هذه الافتراضات التي تصل أحياناً إلى اعتباره مجرد أسطورة من صنع المؤرخين.

لكن الدراسات التاريخية الحديثة، تمكنت من التثبت من شخصيته، وتحديد انتمائه البيزنطي[2]، حيث كان حاكماً شبه مستقل على الشريط الساحلي بين طنجة وسبتة، منتهزاً ضعف السيادة البيزنطية هناك، نتيجة للضغوط العسكرية من جانب العرب المسلمين[3].

ويبدو أن يوليان كانت له علاقات ومصالح مع الحكم القوطي في اسبانيا وبخاصة مع الملك ويتيزا، ولهذا سخط على انقلاب رودريك ووقف ضده، مؤثراً

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 94.
(2) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 53 ــ 54.
(3) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص 71.

التعاون مع فريق الملك السابق في محاولته استرداد العرش لأحد ابنيه[1].

يعتبر تحالف يوليان مع القائد العربي موسى بن نصير، من أهم الدوافع التي شجعت على فتح الأندلس. وهناك روايتان، إحداهما عربية والثانية إسبانية، حول السبب الحقيقي لتحالف يوليان مع العرب المسلمين.

فالرواية العربية الأصل، يبدو فيها الخيال بشكل واضح، ليتخذ شكل الأسطورة. فهي تقوم على وازع الانتقام الشخصي، حيث تروي أن يوليان أرسل إبنته الجميلة فلورندا إلى القصر الملكي القوطي في طليطلة لتتعلم وتتأدب جرياً على عادة طبقة النبلاء. وعندما رآها الملك رودريك أعجب بجمالها واعتدى على شرفها، فأعلمت والدها بما جرى، فأخرجها من القصر، وعزم على الانتقام قائلاً: «ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه»[2]

وتضيف الرواية أن رودريك طلب من يوليان أن يرسل إليه صقوراً للصيد جرياً على عادته، فرد عليه يوليان بقوله: «أيها الملك وحق المسيح، لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط»، ويقصد بذلك عزمه على إدخال العرب المسلمين إلى الأندلس.

أما الرواية الإسبانية، وهي الأقرب إلى الحقيقة والواقع، فتذكر أنه بعد سيطرة رودريك على الحكم، التجأ الملك المخلوع وقلة بن ويتيزا مع أتباعه إلى يوليان حاكم سبتة الذي يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة ويتيزا[3]، وطلب منه الاتصال

---

(1) محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج 1، ص 39.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 8.

مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 5.

ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 9.

الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 7.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص 236.

(3) EDOUARDO SAA VEDRA: ESRUDIO SOBRE LA INVASION DE LOS ARABES EN ESPANA, MADRID 1892. P. 53.

نقلاً عن: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 67.

بالعرب لفتح الأندلس، ظناً منه أن العرب سيكتفون بالغنائم وينسحبون بعد التخلص من رودريك وتسليم الحكم إلى وقلة.

ويبدو أن الرواية العربية، هي من نسج خيال القصاص العرب، لأننا لم نعثر عليها في المصادر الإسبانية المعاصرة، مع أنها دخلت في الأغاني الشعبية الإسبانية لتختلط بالتاريخ الإسباني كما لو كانت حقيقة تاريخية. بدليل أن يوليان لم يكن على علاقة طيبة برودريك حتى يرسل إليه إبنته فلورندا، كما أن سبته التي يحكمها يوليان تحولت إلى ملجأ للساخطين على حكم رودريك وفي طليعتهم الملك المخلوع وقلة. ورغم ذلك، فإننا لا نقلل من أهمية الرواية العربية، فلعل الهدف من نسجها، هو إذكاء نار العامل النفسي، وإظهار مدى فساد رودريك، وتجييش سبتة وطليطلة معاً ضد حكمه قبل إنزال الهزيمة العسكرية به.

وعليه، فإن انتفاء أسطورة فلورندا، لا يعني غياب دور يوليان في عملية الفتح، لأن إتصالاته مع خصوم الملك رودريك في طليطلة وحملهم على التعاون مع العرب المسلمين، كان لها صداها النفسي المؤثر، حيث اعتقد هؤلاء أن دخول الحلفاء العرب، لن يكون أكثر من حملة تأديبية سرعان ما تنتهي لمصلحتهم.

كما أن يوليان، كان حريصاً على الحفاظ على حكمه، بعد الفتح العربي الإسلامي لساحل شمال أفريقيا بأسره، باستثناء سبتة التي تركوها تحت حكم يوليان الذي رغب فيه، فأراد التودد واكتساب ثقة العرب.

وتتفق المصادر العربية، على أن يوليان حاكم سبتة توجه بنفسه للقاء طارق ابن زياد حاكم طنجة، وعرض عليه المساعدة في دخول الأندلس. فقاده على الفور إلى موسى بن نصير وكان مقيماً في القيروان، فرحب بهذا العرض[1]، وتم الاتفاق

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، القاهرة 1961ن ص 90.
ابن القوطية: تاريخ إفتتاح الأندلس، ص 8.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 6.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 8.

على أن يجهز موسى جيشاً ليرد إلى الملك المعزول وقلة عرشه مقابل جزية سنوية يؤديها للعرب.

وهكذا جرى الاتصال بين يوليان والعرب، وقد أصبحوا على أبواب معقله الأخير في سبتة، عندما راسل في هذا الشأن والي طنجة طارق بن زياد[1]. ويبدو أن طارقاً لم يفاجئه الموضوع، لكنه لم يعط رأياً فيه قبل الرجوع إلى قائده موسى بن نصير في القيروان.

وبالفعل جرت اتصالات مباشرة بين موسى ويوليان، وقيل أن اجتماعاً عقد بينهما على متن إحدى السفن الراسية على الشاطيء[2] وقف خلاله موسى على أحوال اسبانيا والخدمات التي يمكن أن يقدمها يوليان، قبل أن ينتقل إلى طنجة للإشراف على تنفيذ المهمة الكبرى.

4 ـ دور اليهود في التمهيد للفتح

يجدر التوقف قليلاً، عند طبقة اليهود التي كانت مكروهة من سائر الطبقات، وبخاصة النبلاء ورجال الدين الكاثوليك الذين اضطهدوهم، بسبب اختلاف الدين من جهة، وبسبب سيطرة اليهود على الحياة الاقتصادية وتعاطيهم الربا من جهة ثانية. وكذلك أخذ اليهود، وهم كثرة في اسبانيا، يعملون على إسقاط دولة القوط، والاستعانة بالعرب المسلمين الذين يحكمون المغرب، حيث يتمتع فيه اليهود بالحرية الدينية[3].

وقد أشار جرجي زيدان إلى دور اليهود في اسقاط حكم الملك رودريك والتمهيد للفتح العربي الإسلامي للأندلس. وذلك عبر شخصية الخادم «يعقوب» الذي أخذ يعلم «ألفونس» بعض العبارات اليهودية، قبل أن يجمعه بهم. مثل عبارة «شالوم عليخم» وعبارة «أوهيل موعيد»[4]. وقد سار به إلى مكان سري، ليدخلا في فوهة

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقيا والأندلس، ص 277.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج 2 ص 6.

(3) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، دار النهضة العربية، بيروت 2002، ص 60.

(4) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 80.

بعد رفع حجر ثقيل «وهبطا سبع درجات فانتهيا إلى سرداب يسع الإنسان واقفاً فمشيا فيه، ويعقوب يقود الفونس في الظلام»[1]. فإذا به «بين يدي جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة»[2] وهي تملك المال الوفير الذي يحتاجه الفونس في صراعه ضد الملك رودريك. ويشير «يعقوب» إلى أن أعضاء هذه الجمعة هم من اليهود وهو يخاطب الفونس، قائلاً:

«... كل الذين رأيتهم في هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين آبائهم وأجدادهم، وينوبون عن الألوف من أهل هذا الدين منتشرين في أنحاء المملكة الإسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحصرون القداس في الكنائس، ويتناولون القربان، ويقومون بسائر الفروض المسيحية، وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم المئات، وقد رأيناهم يسجدون أمام الأيقونات ويتلون الصلوات، وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله.

وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواماً وهم يجمعون المال ويختزونه لاغتنام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير، وما كادوا يبلغون بغيتهم على يد والدك المرحوم حتى استبدل به أهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب، بل أنت هو صاحبه الشرعي فنرجو أن تكون النجاة على يدك»[3].

وهكذا أدرك الفونس أن خادمه يعقوب هو يهودي، ومما زاده استغراباً ادراكه «أن ملوك القوط شددوا في اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل أو النصرانية أو المهاجرة، فهاجر بعضهم وتنصر الباقون، فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر!»[4].

فإذا به بعد اجتماعه بأعضاء الجمعية اليهودية السرية يدرك الفونس تماماً أن معظم اليهود تظاهروا بالنصرانية حفاظاً على أرواحهم، واستمروا متمسكين سراً بديانتهم اليهودية، وهذا يُعتبر غاية دقيقة في طرق التحفظ وأبواب الدهاء. كما «أدرك أن

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 81.
(2) المرجع نفسه، ص 83.
(3) المرجع نفسه، ص 84.
(4) المرجع نفسه، ص 75.

لهذه الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرهما»[1]. وأعضاؤها من رجال الجند أو الكهنة أو العمال أو الزراع، وكلهم يوهمون الحكم أنهم من عداد المسيحيين[2].

ويوضح جرجي زيدان ترحيب اليهود في اسبانيا بالعرب الفاتحين، باعتبار أنهم معاً أبناء عم، وذلك بقول يعقوب: «إن العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل إبن ابراهيم، واليهود أبناء أخيه اسحق، فهم بهذا الاعتبار أبناء عمنا»[3].

وعلى هذا الأساس، نفر اليهود من حكم القوط الذين يعدون الرعايا عبيدهم. في حين أدرك اليهود أن العرب الفاتحين «تركوا أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه في أيام الروم أو الفرس، كل منهم على دينه واعتقاده، يتعاطى عمله وليس عليه إلا أداء الخراج أو الجزية كل عام، وهي ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالها»[4].

وهذا كله، جعل اليهود ينتظرون قدوم العرب الفاتحين، ويتضح ذلك من قول اليهودي رئيس الجمعية السرية، وهو يقول عن العرب: «يا حبذا لو أنهم يأتون إلينا فيستولون على هذا البلاد، لأنهم إذ كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فالأولى أن يكونوا أفضل لنا من حكومة القوط»[5]. ومما يذكر أن ملوك القوط، سواء في عهدهم الآريوسي أو الكاثوليكي اضطهدوا اليهود واتهموهم بالتآمر على سلامة الدولة، مما دعا اليهود إلى التفكير في التخلص من نير القوط[6].

5 ـ الدوافع العربية الإسلامية

تتعدد الدوافع العربية الإسلامية التي عجلت بفتح الأندلس في فترة قصيرة لم

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 85.
(2) المرجع نفسه، ص 84.
(3) المرجع نفسه، ص 86.
(4) المرجع نفسه، ص 87.
(5) المرجع نفسه، ص 88.
(6) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 65.

تتجاوز الست سنوات، من الدافع الاستراتيجي وحث البربر على الحرب والجهاد، إلى نمو البحرية العربية الاسلامية، والتحالف مع يوليان حاكم سبته.

إن الجوار الجغرافي بين المغرب والأندلس، والتقارب العنصري بين الشعبين، والتجانس التاريخي منذ التوسع الاستعماري الفينيقي، جعل من هاتين المنطقتين اللتين لا يفصل بينهما سوى مضيق جبل طارق، بمثابة منطقة استراتيجية واحدة وهامة لكل منهما، ولكل من سنحت له الفرصة لدخول إحداهما، إذ يصبح دخول الثانية ضرورة حتمية لحماية وجوده.

استغرق الفتح العربي الإسلامي للمغرب سبعين سنة، كانت كافية لتعريب معظم قبائل البربر مع دخولهم الإسلام. فإذا كان الرومان والبيزنطيون قد سيطروا طيلة ثمانية قرون ونصف القرن، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحويل المغرب إلى إقليم روماني أو بيزنطي، بل ظلوا مجرد جيوش إحتلال. في حين اندمج المغرب في الدولة العربية الإسلامية، وصار له الطابع العربي الإسلامي، وإن كان بعض البربر لم يتخلوا عن لغتهم وحضارتهم القديمة على الرغم من اعتناقهم الإسلام، وذلك حتى عصرنا الحاضر.

فلا غرو أن تتوق قبائل البربر، بعد تعريبها واعتناقها الإسلام، إلى الحرب والجهاد على غرار العرب المسلمين، ولم يكن أمامهم سوى عبور مضيق جبل طارق لإشباع هذه النزعة نحو الجهاد وكسب الغنائم[1].

لذلك لا يضير أن يكون الدافع الاقتصادي مكملاً للجهاد، فتثير كنوز طليطلة شهية المقاتلين سواء البربر أو العرب الذين انضموا معاً تحت راية الإسلام، وبخاصة أن اسبانيا كانت تعاني من الصراع الداخلي نتيجة الضعف السياسي والاجتماعي، مما جعلها فريسة سهلة لأي فاتح يقبل عليها من الشمال أو من الجنوب[2].

---

(1) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والندلس، ص 48.

(2) LEVI-PROVENÇAL: HISTOIRE DE L'ESPAGNE MUSULMANE, LEIDEN-PARIS 1950. T1, P. 3.

إن مجرد التفكير في عبور مضيق جبل طارق لفتح الأندلس، يقتضي عدم إغفال أهمية وجود أسطول بحري عربي إسلامي. وبالفعل تحولت تونس إلى قاعدة بحرية حصينة، يقلع منها الأسطول العربي تحت راية الإسلام في غرب البحر المتوسط، وهي التي مكنت العرب المسلمين من إنجاز المرحلة الأخيرة من مراحل فتح المغرب.

ورغم عدم تركيز المصادر العربية على الدور الذي لعبته البحرية العربية الإسلامية في فتح الأندلس، إلا أنه من المؤكد أن العرب المسلمين بذلوا نشاطاً بحرياً استعداداً لمثل هذا الفتح الذي يتطلب إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال السرايا الاستطلاعية.

ولا ينقص من مهارة العرب المسلمين أن استعانوا ببعض سفن حليفهم يوليان حاكم سبته، ولكن مما لا شك فيه أنهم اعتمدوا في الدرجة الأولى على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح الكبير الذي اقتحم أوروبا لأول مرة في تاريخ الفتح العربي الإسلامي، وليس فقط على السفن التي أعدها يوليان كما ظن جرجي زيدان[1] وغيره من المؤرخين.

اعتمد العرب المسلمون في مساندة الحملات البرية لفتح المغرب، على سفن مصر، حتى سنة 89هـ/ 708م، عندما أسسوا داراً لصناعة الأسطول في تونس، بفضل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي أوعز إلى حسان بن النعمان[2]. ثم استكمل موسى بن نصير بناء دار الصناعة[3]، وقد ساعده في ذلك جماعة من أقباط مصر[4].

---

(1)جرجي زيدان :فتح الأندلس ،ص.94.

(2)ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر ،دار الكتاب اللبناني ــ بيروت 1958 م.ج 2 ص .628

(3) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر 1911م، ص 38، 39.

ابن أبي دينار: المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس. تونس 1286 هـ/ 1869م، ص 11.

(4) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. دار النهضة العربية. بيروت 1969م، ص 32.

وهكذا يتبين، أن الدافع الرئيسي لفتح الأندلس هو الصراع على السلطة والنفوذ ووقوف يوليان إلى جانب أبناء الملك السابق ويتيزا «غيطشة» في صراعهم ضد الملك الجديد رودريك. دون اغفال الصراع المذهبي بين الآريوسية والكاثوليكية ودور الكنيسة في تنصيب رودريك، بسبب موقف ويتيزا المتشدد من امتيازات رجال الدين وتدخلهم في شؤون الحكم.

ولا يمكن اغفال أهمية تحالف الفاتحين مع المعارضة ضد الحكم في البلاد المنوي فتحها. وهذا ما فعله العرب المسلمون، بعد فتحهم المغرب. فقد وجدوا أنفسهم أمام مضيق يفصلهم عن الأندلس، وتبين من مجريات التاريخ أن من يسيطر على المغرب أو الأندلس لا بد وأن يستعد لعبور المضيق للسيطرة على الطرف الآخر. ولتحقيق هذا الهدف، عرف العرب كيف يتحالفون مع المعارضة الاسبانية التي تمثلت بأبناء الملك السابق ويتيزا، ومع اليهود الذين ينتظرون الفرصة للتخلص من حكم الملك رودريك، لإدراكهم أن مصالحهم ستحقق في ظل الحكم العربي الإسلامي. ومع ذلك يبقى التحالف مع يوليان من أهم العوامل التي عجلت بفتح الأندلس دون إغفال أهمية الدوافع العربية الإسلامية من الدافع الاستراتيجي لحماية الفتح العربي في المغرب، إلى حث البربر على الحرب والجهاد ليندمجوا مع العرب تحت راية الإسلام، مع التأكيد على دور البحرية العربية الإسلامية.

الفصل الثاني

دور موسى بن نصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس

(91 - 96هـ/710ـ715م)

1 ـ حذر موسى بن نصير من يوليان حاكم سبتة
2 ـ حملة طارق بن زياد وانتصاره في وادي لكه (92هـ/ 711م)
3 ـ رواية حرق طارق بن زياد للسفن
4 ـ رواية عدم زج العرب في حملة طارق بن زياد للتخلص من البربر
5 ـ ابراز دور طارق بن زياد واهمال دور موسى بن نصير
6 ـ رواية الخلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير
7 ـ عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق.
(95 ـ 96هـ/ 714 ـ 715م)

ما إن تم الفتح العربي الإسلامي للمغرب سنة 90هـ/ 709م، حتى أصبح الطريق مفتوحاً لعبور المضيق نحو جنوب غرب أوروبا. ففي مراحل أربع قصيرة لا تتعدى الست سنوات، من الغارة الاستطلاعية التي قام بها طريف بن مالك المعافري، إلى حملة طارق بن زياد، وحملة موسى بن نصير، ثم حملة ابنه عبد العزيز بن موسى، استكمل الفتح العربي الإسلامي لاسبانيا أو لشبه جزيرة ايبيريا، لتحمل اسم الأندلس، قبل أن يقتصر هذا الاسم الجديد على جنوب اسبانيا، ثم على مملكة غرناطة الصغيرة في الجنوب الشرقي، وهي المملكة التي سقطت سنة 897هـ/ 1492م، لتضيع معها الأندلس نهائياً.

1 ـ حذر موسى بن نصير من يوليان حاكم سبتة

لم يكن موسى بن نصير قد وثق بيوليان، فكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يستأذنه، فرد الوليد يأمره بأن يخوض الفتح أولاً بالسرايا حتى يختبرها، وألا يغرر بالمسلمين في بحر الزقاق الشديد الأهوال[1].

عمل موسى بن نصير بنصيحة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، فطلب من يوليان أن يشن الغارة على ساحل جنوب الأندلس، ليتأكد من صدق نواياه. وبالفعل عبر يوليان المضيق في مركبين، وشن الغارة، فقتل وسبى وغنم، وشاع الخبر

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص 237.

فتحمس المسلمون للفتح[1].

ولم يكتف موسى بن نصير بهذه الغارة الاستطلاعية، فأرسل أحد كبار قواده طريف بن مالك، ويكنى بأبي زرعة، في غارة استطلاعية أخرى. فعبر المضيق في أربع سفن على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل، بينهم مائة من الفرسان وأربعمائة من المشاة، وذلك في رمضان 91هـ/ تموز 710م. ثم نزل مع سريته في المكان الذي حمل اسمه في ما بعد، أي مدينة طريف Tarifa، ومنه شن سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس، بين مدينة طريف والجزيرة الخضراء.

وعاد طريف بن مالك إلى طنجة سالماً، بعد أن سبى وغنم المال الكثير. وعندها وثق موسى بن نصير بحليفه يوليان، وتأكد من ضعف المقاومة الإسبانية، واشتد عزمه على فتح الأندلس.

2 ـ حملة طارق بن زياد وانتصاره في وادي لكة (92هـ/ 711م)

إن اختيار طارق بن زياد، وهو بربري، على رأس حملة جلّ عناصرها من البربر أيضاً، وهي سابقة تحدث لأول مرة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية، هو قرار مقصود يعتبر خطوة جريئة إيجابية قام بها موسى بن نصير[2]، بعد أن أوتيت ثمارها سياسته المرنة مع البربر، ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في أعمالهم العسكرية. وكان لهذه السياسة مردود إيجابي على الطرفين، حيث رأى موسى بن نصير أهمية الاستفادة من طاقات البربر العسكرية واكتساب ولائهم، في الوقت الذي أخذ فيه هؤلاء يميلون إلى التعايش مع العرب، مقدرين فيهم ذلك الدور الطليعي على الصعيدين الديني والسياسي.

وعلى هذا الأساس، عبر طارق بن زياد المضيق الذي حمل اسمه حتى

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص 214، 217.

(2) عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، تحقيق أحمد بن ميلاد ومحمود إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص 29، 30.

اليوم «مضيق جبل طارق» على متن سفن أقلع بها مع جنوده من سبتة، معقل يوليان البيزنطي، الذي أسهم على ما يبدو بتقديم بعض السفن لهذه الغاية[1]. غير أننا نشك في أن تكون عملية العبور قد اقتصرت على سبتة فقط، كما توحي بذلك معظم المصادر، لأن قاعدة تونس على الأرجح هي التي وفرت السفن اللازمة، ليس لتأمين الانتقال فقط، ولكن أيضاً لتأمين الخطوط الخلفية للحملة. دون نكران الدور الخطير الذي قام به يوليان وجهوده في الوقوف على آخر أخبار الإسبان بالسرعة القصوى، وتوظيفها في خدمة موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين تحركا بدورهما في الوقت المناسب.

أما اسم المعركة الفاصلة فهي معركة وادي لكة، عند نهر برباط الذي غلب عليه اسم الوادي. ففي وادي لكة، جرت معركة طاحنة سنة 92 هـ/ 711م، انتهت بهزيمة مدمرة للجيش الإسباني، وفرار قائده الذي اختفى بعد ذلك ولم يعرف شيء عنه إلا في الأساطير القومية[2].

فقد ابحرت حملة طارق بن زياد من ميناء طنجة في يوم الجمعة 5 رجب 92هـ/ 28 نيسان 711م، على متن بعض سفن الأسطول العربي الإسلامي. ولا يعقل، كما تذكر المصادر، أن تكون أربع سفن فقط تابعة ليوليان[3]، أو بعض مراكب تجار الروم «البيزنطيين» الذي تردد على الساحل الجنوبي للأندلس[4] استخدمها يوليان، كافية لنقل سبعة آلاف مقاتل عدا الخيل والعتاد.

وقد اعتمد جرجي زيدان تلك الرواية أيضاً، بأن السفن التي أعدها يوليان هي التي استخدمتها حملة طارق بن زياد في عبور المضيق أو بحر الزقاق. وفي ذلك

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وافريقية والأندلس، ص 205.
(2) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 10.
(3) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 6.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 238.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 90.
(4) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 8.

يقول أنّ موسى بن نصير أعد حملة «وسلّم قيادتهم إلى طارق وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق إلى الأندلس، فعبره في سفن أعدها لهم يوليان»[1].

لذلك، فإنه لا يعقل أن يعهد موسى بن نصير مثل هذه المهمة، إلى حليفه الأجنبي يوليان، مهما عظمت ثقته به، ويجعل مصير الحملة يتوقف عليه. وإذا اعتبرنا أن السفينة الواحدة تتسع لمائتي جندي، فإن عبور الحملة يحتاج إلى خمس وثلاثين سفينة إضافة إلى سفن أخرى لنقل المعدات والأقوات. أما السفن الأربع، فتحتاج إلى أكثر من يومين لتأمين عبور الحملة وهي تنقلها فوجاً بعد فوج مرات عديدة.

لا شك، أن موسى بن نصير، اعتمد على الأسطول العربي الإسلامي الذي يجوب ساحل المغرب انطلاقاً من قاعدته البحرية في تونس، لتسهيل عبور حملة طارق بن زياد. ولا يضير أبداً إن كان استعان بالسفن الأربع التي يملكها يوليان أو بعض سفن التجار البيزنطيين، إمعاناً في الحيلة والخداع، حتى لا تثير الريبة لدى ملك القوط رودريك أثناء انشغاله بتأديب الباسك في شمال الأندلس. وهذا لا يعني، أن الحملة لم تلق مقاومة أثناء نزولها في الساحل الجنوبي للأندلس الذي يضم قاعدة استراتيجية هامة للقوط، متمثلة بالجبل الذي ما لبث أن حمل اسم جبل طارق نسبة إلى الفاتح طارق بن زياد. وأصبح المضيق الذي عبرته الحملة يعرف أيضاً بمضيق جبل طارق.

وما أن علم روردريك بأخبار الحملة، حتى أسرع بالعودة إلى عاصمته طليطلة، وأعد جيشاً تقدم به نحو قرطبة بانتظار حشد جميع قواته التي بالغ المؤرخون العرب في تعدادها، فقيل أنه جمع مائة ألف[2]، وقيل سبعين ألفاً[3]، ليصل العدد إلى ستمائة ألف مع الحميري[4]، وهذه مبالغة واضحة جداً. والأرجح، أن الجيش القوطي

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 94.

(2) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 7.

(3) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 225.

(4) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 10.

لم يتجاوز الأربعين ألفاً[1].

دارت المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد ورودريك في كورة شذونة جنوب غرب اسبانيا، وهي كورة واسعة جعلت المؤرخين يختلفون حول مكان المعركة بداخلها. فيرى البعض أنها حدثت في وادي لكّة Guadalete شمال كورة شذونة، في حين يرى البعض الآخر أنها حدثت في جنوب الكورة عند وادي برباط Barbate Rio أو وادي بكة[2]، وهو النهر الذي يخترق بحيرة لاخندا Janda la de Laguna، وافترض هؤلاء أن اسم وادي لكة تحريف لاسم وادي بكة. أما ليفي بروفنسال فيرى أن المعركة وقعت عند البحيرة، مفسراً اسم وادي لكة على أنه تعريب لكلمة Lago أو Locus ومعناها البحيرة[3].

ورغم ذلك، يتفق المؤرخون على اسم المعركة، وهي معركة وادي لكة، حتى ولو كان محرفاً من وادي بكة، وسواء أكان في شمال كورة شذونة أو في جنوبها، فقد وقعت المعركة في يوم الأحد 28 رمضان 92 هـ/ 19 تموز 711م، أي بعد ثلاثة وثمانين يوماً من عبور حملة طارق بن زياد للمضيق الذي حمل اسمه. وتعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ، استمرت ثمانية أيام[4]، لتنتهي يوم الأحد 5 شوال 92 هـ/ 36 تموز 711م، بإنزال الهزيمة الساحقة بجيش رودريك[5]. ولا يمكن إغفال الدور الذي لعبه يوليان ورجاله في إرشاد جيش طارق بن زياد وإمداده بالأخبار

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 217 ــ 218.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 7.

(3) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P 20, 21.

(4) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 233، 243.

ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص 11.

الحميري: الروض المعطار في خير الأقطار، ص 169.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ. القاهرة 1949، ودار صادر بيروت 1966م، ج 4 ص 269.

(5) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 96.

والمعلومات، فضلاً عن دور إبني الملك السابق ويتيزا اللذين استبقاهما الملك رودريك وقلدهما ميمنة الجيش القوطي وميسرته فانتهزا الفرصة للانقلاب عليه أثناء المعركة، حسب اتفاقهما مع يوليان وطارق، وانضم إليهما عدد كبير من قادة الجيش اعتقاداً منهم أن هدف المسلمين الحصول على الغنائم والخيرات، ثم العودة إلى المغرب، بعد إسقاط حكم رودريك الذي قيل أنه قتل في المعركة على يد طارق بن زياد بعد أن احتز رأسه بالسيف[1] وبعث به إلى موسى بن نصير، وقيل أنه رمى نفسه في وادي لكة ولم يعثر له على اثر[2]، وأن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض وكان عليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد[3].

وهذا كله، يشير إلى بطولة حملة طارق بن زياد التي انضم إليها طريف بن مالك، فقضى منهم ثلاثة آلاف من اصل إثني عشر ألفاً، لأن الفيء قسم على تسعة آلاف[4].

وبهذا الدور الهام الذي لعبه طارق بن زياد في قيادة الحملة، دخل الأسطورة وبخاصة مع رواية حرق السفن والخطبة التي أصبحت وكأنها الحافز الرئيسي لتحقيق النصر في وادي لكة، ثم فتح الأندلس.

3 ـ رواية حرق طارق بن زياد للسفن

تحولت الرواية الشائعة عن إحراق طارق بن زياد للسفن، بعد نزوله الساحل الجنوبي للأندلس وسيطرته على الجبل الذي حمل اسمه، كي يقطع على جنوده أي تفكير في الانسحاب إلى المغرب فيقاتلوا حتى الموت، إلى ما يشبه الأسطورة التي

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 96.
ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 10.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 223، 227.
(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، الرطيب، ج 1، ص 242.
(3) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 9.
(4) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 243.

دخلت فيها خطبته الشهيرة، ومطلعها، يقول:

«ايها الناس، أين المفر؟ إن العدو أمامكم، والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...»[1].

وتختلف الروايات الثلاث حول سبب إحراق السفن، فالبعض يرى فيها شحذاً للقتال بقول طارق لجنوده: «قاتلوا أو موتوا». في حين تشير روايتا الإدريسي والحميري[2]، إلى خشية طارق من الجنود العرب الذين خالهم لن ينزلوا معه إلى الجبل، فيتخلص بذلك من التهم التي قد يوجهونها ضده لدى موسى بن نصير في حال انسحابهم بالسفن نحو المغرب.

ومع ذلك كله، لا يمكن إثبات أو نفي رواية حرق السفن التي يميل المؤرخون المحدثون إلى إنكار صحتها من أساسها كحدث تاريخي. كما يدور الشك حول الخطبة الشهيرة التي تعتبر قطعة أدبية فريدة يعجز مثل طارق بن زياد البربري على صياغتها، كما يعجز جنوده البربر الذين دخلوا الإسلام حديثاً على فهمها لأنهم مثله من البربر. ولكن مثل هذا التحليل المنطقي، لا ينفي وجود خطبة لطارق بن زياد على عادة القادة الفاتحين، قالها باللسان البربري في هذا الموقف التاريخي لحث جنوده البربر على القتال.

ومما لا شك فيه، أن مثل هذه الرواية والخطبة، وإن كانت حقيقة أو من نسج الخيال، فإنها تشير إلى الدور البطولي الذي قام به القائد البربري طارق بن زياد على رأس حملة جلّ عناصرها من البربر الذين كانوا حتى الأمس القريب تحت الحكم البيزنطي. وهذا الأمر يطرح مسألة أخرى، هل حقيقة أن موسى بن نصير أراد التضحية بالبربر في مثل هذه الحملة، كما يبدو من إشارة جرجي زيدان.

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج إن ص 225.

ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، القاهرة 1937، ج 2، ص 117.

ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. القاهرة 1948، ج 4، ص 404.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أو «الروجاري». ليدن 1866، ص 36.

الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 75.

4 ـ رواية عدم زج العرب في حملة طارق بن زياد للتخلص من البربر

يذكر جرجي زيدان، أن موسى بن نصير أراد أن يجرب عبور المضيق لفتح الأندلس برجال من الموالي والبربر المسلمين غير العرب. مما يعني أنه لم يخاطر بالجند العرب في بحر شديد الأهوال، وفي ذلك يقول:

«فلما عرض يوليان على موسى فتح الأندلس على أن يكون هو عوناً له في ذلك، بعث موسى إلى الخليفة الوليد يستأذنه، فأذن له، على أن يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال)، فرأى موسى أن يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين من غير العرب، ولم ير خيراً من طارق يوليه قيادة تلك الحملة، فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر ـ وفيهم بعض العرب ـ وسلم قيادتهم إلى طارق، وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق إلى الأندلس»[1].

ثم يعود جرجي زيدان في المقدمة التاريخية التي استهل بها روايته «شارل وعبد الرحمن»، فيذكر[2]: «ولما تهيأت أسباب الفتح لموسى وهو في إفريقية، استشار الخليفة في ذلك فوافقه وحذره، فلم يشأ موسى أن يفرط في جند العرب، وهم يومئذ قليلون بالقياس إلى أهل البلاد التي فتحوها، فأنفذ في تلك المهمة حملة أكثرها من البربر ـ سكان إفريقية الأصليين ـ وجعل قيادتهم لمولاه طارق».

صحيح أن موسى بن نصير اختار قائداً بربرياً من نفزة[3]، هو طارق بن زياد على رأس حملة من سبعة آلاف[4] جميعهم من البربر، باستثناء ثلاثمائة من العرب. ويعتبر اختيار بربري على رأس حملة جلّ عناصرها من البربر أيضاً، سابقة تحدث

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 94.

(2) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 9.

(3) للمعلومات عن نفزة:

ياقوت الحموي: معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان، بيروت 1979، ج 5، ص 296.

(4) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 6.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 238.

لأول مرة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية. فلم يكن هدف موسى بن نصير، كما يذكر جرجي زيدان «أن يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين غير العرب»[1]، أو أنه «لم يشأ أن يفرط في جند العرب»[2]، في حملة جديدة غير مأمونة العواقب، بل كان هذا الاختيار قراراً مقصوداً من موسى، بعد أن أوتيت ثمارها سياسته المرنة مع البربر، ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في أعمالهم العسكرية. لذلك اعتقد أن تفسير جرجي زيدان للتضحية بالبربر المسلمين في حملة الأندلس مبالغ فيها، لأن أول حملة بحرية قادها العرب ضد البيزنطيين في سردينيا أطلق عليها «حملة الأشراف» لأنها تكونت من العائلات العربية العريقة[3].

وعلى هذا الأساس، تشكلت حملة طارق بن زياد من البربر، سكان المناطق المفتوحة في المغرب، لفتح قطر كبير هو الأندلس. ومع ذلك لم يشأ موسى بن نصير أن تكون لحملة طارق سمة بربرية مطلقة، فأنشأ مجلساً قيادياً معظم عناصره من العرب، مثل: عبد الملك بن أبي عامر المعافري، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك، وعلقمة اللخمي، وهذا ما يؤكد حرصه على نجاح خطة الفتح، فالبربر هم أكثر معرفة من العرب ببلاد الأندلس التي لا يفصلها عن بلادهم «المغرب» سوى مضيق بحر الزقاق، ومثل هذه الحملة تزيد من ثقتهم بالعرب بعد انضوائهم معاً تحت راية الإسلام[4].

ثم إن موسى بن نصير، حفاظاً على أرواح الجنود البربر، لم يأذن لحملة طارق بن زياد، بعبور المضيق، إلا بعد أن اطمأن إلى الدور الخطير الذي يقوم به يوليان في توفير المعلومات التي مهدت عملياً للفتح، وتأكد من خروج الملك رودريك من العاصمة طليطلة لقمع تمرد الباسك في بنبلونة شمال اسبانيا[5]، مما يجعل الطريق

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 94.
(2) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 9.
(3) عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، ص 95، 96.
(4) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 68.
(5) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 239.

مفتوحاً أمام الحملة لفتح اسبانيا ودخول طليطلة عاصمة مملكة القوط.

كما أن حملة طارق بن زياد، كانت عندما عبرت المضيق، لا تتجاوز السبعة آلاف، وجلّهم من البربر، وهذه الحملة لا تقوى على مواجهة الجيش القوطي الذي يقوده رودريك وهو يضم حوالى الأربعين ألفاً[1]، ومثل هذا العدد كاف لإنزال الهزيمة بحملة طارق بن زياد الذي كتب إلى موسى بن نصير يطلب المدد، فأرسل إليه خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك، عبروا المضيق، لتصبح الحملة إثني عشر ألفاً، مما يؤكد الدور الذي لعبه الأسطول العربي الإسلامي في التمهيد لفتح الأندلس، وكذلك الجنود العرب بقيادة طريف الذي لحق بطارق وكان إلى جانبه في القتال أثناء معركة وادي لكة.

وهذا كله، يعني في النهاية، أن موسى بن نصير أحسن الاختيار، عندما عيّن طارق بن زياد على رأس هذه الحملة، فراهن عليه بطلاً لهذه المهمة الخطرة، وراهن على البربر في التمهيد لفتح الأندلس.

5 ـ إبراز دور طارق بن زياد وإهمال دور موسى بن نصير

ينهي جرجي زيدان روايته «فتح الأندلس»، بالقول: وأما الفونس ويوليان، فظلا عوناً لطارق وجنده حتى أتم فتح الأندلس، وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة، إلا في أستجة... فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس... فبعث جيشاً إلى قرطبة، وجيشاً إلى غرناطة، وجيشاً إلى مالقة، وجيشاً إلى تدمير، وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة فوجدها خالية... وسار في إتمام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ»[2].

صحيح أن طارق بن زياد، عمل بسرية، بعد انتصاره في معركة وادي لكة، ليتقدم نحو المدن الكبيرة. وباستثناء معركة استجه[3] ضد فلول الجيش القوطي

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 218.

(2) جرجي زيدان، فتح الأندلس، ص 168 ـ 169.

(3) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 9.

الذي قضى عليه، لم يلق هذا القائد مقاومة ذات أهمية في مسيرته نحو الشمال. ثم بدأت حرب المدن، فتسقط قرطبة الواقعة على نهر الوادي الكبير، ثم سقطت طليطلة عاصمة القوط دون مقاومة عنيفة[1]، فترك فيها حامية عسكرية[2]، ليصعد نحو الشمال الغربي، متعقباً فلول الهاربين من العاصمة في منطقة وادي الحجارة ليصل أخيراً في خريف سنة 93هـ/ 712م إلى مدينة صغيرة تسميها المصادر العربية «المائدة»[3]، قبل أن يعود إلى طليطلة، منتظراً تعليمات موسى بن نصير.

ولكن جرجي زيدان بإنهائه رواية فتح الأندلس على هذا الشكل، يوحي وكأن فتح الأندلس تم على يد طارق بن زياد وحده. وهذا ظلم بحق موسى بن نصير الذي استكمل في المغرب أطول فتح في تاريخ العرب العسكري، بعد أن خطط لها موسى بنفسه، وتتبع كل مراحلها وخطواتها[4]. لذلك لا يمكن نكران الدور الذي لعبه موسى بن نصير بعد انتصارات طارق بن زياد، وتوقفه في طليطلة. فقد أدرك موسى خطورة الانتشار الواسع للقوات الإسلامية في اسبانيا، دون تغطية عسكرية كامنة، فأبحر على رأس قوات جديدة بلغت ثمانية عشر ألفاً[5]، جلهم من العرب في رمضان 93هـ/ حزيران 712م واستهل عملياته العسكرية بالسيطرة على مدينة شذونه ثم قرمونة وأشبيلية[6] وماردة[7]، ليتوجه نحو طليطلة حيث يتمركز طارق بن زياد. فعقدا مجلساً حربياً لمناقشة المرحلة الثانية من الفتح. واشتركا معاً في حملة واحدة نحو الشمال الشرقي وفق خطة مرسومة[8]، ليتحقق على أيديهما معاً الفتح النهائي للأندلس

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 14 ــ 15.
(2) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 12.
(3) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 14.
(4) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي 1967، ص 8.
(5) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 15.
(6) العدوي، موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي، القاهرة (بدون تاريخ)، ص 93.
(7) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 176.
(8) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 1، ص 123.

سنة 95 هـ/ 714م.

وعلى الرغم من ذلك كله، لا يمكن نكران الدور الهام الذي قام به طارق بن زياد، الذي أدرك أهمية انتصاره في وادي لكة، وضرورة الإسراع في القضاء على فلول الجيش القوطي. عملاً بنصيحة يوليان الذي حذره من خطورة تجمعهم في العاصمة طليطلة والتحصن فيها، وإمكانية تنصيب حليفه وقلة ملكاً على القوط، مما يعرقل فتح البلاد.

لذلك، اتجه طارق نحو القلعة استجة التي قاومت بشدة نتيجة تجمع فلول القوط فيها، فشكلت الخط الدفاعي الأول عن العاصمة طليطلة، لكنه ما لبث أن أرغم صاحب القلعة على الصلح، وفرض عليه الجزية[1]. ثم مضى طارق مسرعاً بمعظم جيشه نحو العاصمة طليطلة، فدخلها دون مقاومة تذكر سنة 93هـ/ 712م، فقد كانت شبه خالية «ليس فيها إى اليهود في قوم قلة»[2]. وأصاب غنائم هائلة من الذهب والفضة والتحف والآثار النفيسة من كنائس العاصمة وقصورها[3].

تجمعت المقاومة القوطية في الجزء الشمالي من غرب الأندلس، وكادت أن تغير الوضع العسكري لصالحها لو تمكنت من إحكام سيطرتها على إشبيلية. وهنا يذكر بعض المؤرخين الخلاف بين موسى بن نصير وطارق بن زياد.

6 ـ رواية الخلاف بين موسى بن نصير وطارق بن زياد

اعتقد بعض المؤرخين أن موسى بن نصير قد خالجه شعور بالارتياب إزاء طارق بن زياد، فظن أنه سينزع إلى التفرد إثر انتصاره في وادي لكة[4]، بعد أن

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 9.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 244.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 17.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 248.

(3) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 131.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 270.

(4) حسن مؤنس: فجر الأندلس، ص 76.

عاش حالة غرور أعمته، فكانت انتفاضة حسد[1] جعلت موسى بن نصير يشارك في فتح الأندلس. كما قيل أن موسى بن نصير وبخ طارق بن زياد على مخالفته لرأيه، بتسرعه في اقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق، واصطلحا، وأمره، بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه[2]. ومهما قيل عن الخلاف بين القائدين[3]، فلعل خطة فتح الأندلس كانت معدة سلفاً ومدبرة تدبيراً محكماً بين موسى بن نصير وطارق بن زياد، بالتعاون مع يوليان. وهي خطة حربية تتم عن براعة، لأنها تؤدي إلى الإيقاع بالعدو بين فكي كماشة، فبعد أن اقتحم طارق الأندلس من الوسط تحرك موسى في طريق آخر نحو الغرب، لتنتهي خطة التطويق بالتقاء القائدين عند العاصمة القوطية طليطلة نفسها. وهذا ما حدث بعد إنزال الهزيمة بالقوط في معركة سيغويلا في ذي الحجة 94هـ/ أيلول 713م. ويقول سيفيدرا أنه في هذه المعركة، لقي رودريك مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير[4]، وتم دفنه في مدينة بيزو Viseo لتدور حوله الكثير من الملاحم الإسبانية. في حين يذكر جرجي زيدان أنه لقي مصرعه في معركة وادي لكة[5]، على غرار المؤرخين العرب[6].

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 207.

ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 16.

(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 255.

(3) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 207.

ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 96.

ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 35، 36.

(4) Edouardo Saavedra: Esrudio sobre la invasion de los arabes en Espana, P 101.

نقلاً عن: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 99.

(5) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 158.

(6) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 96.

ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 10.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 223، 227.

مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 9.

والحقيقة، أنه لا خلاف بين القائدين، لأن نجاح حملة طارق بن زياد حسب الخطة المرسومة، دفع موسى بن نصير لاتخاذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم، فتوجه إلى أرض المعركة. فلم تكن انتفاضة حسد أو حالة غرور، كما أسهبت وأفاضت بعض الكتابات التاريخية، ولا سيما وصفها القصصي للقاء موسى وطارق في ما بعد[1].

لقد ظلمت هذه الكتابات القائد موسى بن نصير، عندما اتهمته بالحسد أو الطمع، فتاريخه العسكري في المغرب، يرتبط بإنجازات كبيرة تمثلت باستكمال أطول فتح في تاريخ الفتح العربي الإسلامي، وبإرساء روح التلاحم بين العرب والبربر تحت راية الإسلام. وكان من الطبيعي، أن ينتقل بنفسه على رأس حملة لمتابعة خطته بعد نجاح حملة طارق بن زياد الذي عهد إليه بمهمة عسكرية في الأندلس على غرار ما عهد إليه قبلاً في طنجة. وفي كلتا الحالتين نفذ طارق أوامر قائده موسى، ولو خالج موسى بن نصير أي شعور بالارتياب إزاء طارق، لاستبدله بواحد من أبنائه الأربعة الذين برزوا إلى جانب طارق في الفتح. ولو صحَّ أن طارقاً استقل برأيه ونزع إلى التفرد، بعد انتصاره في وادي لكة، لما استمر في منصبه يمارس مهامه[2].

لذلك، فبرأينا أن طارق بن زياد كان قائداً منضبطاً ينفذ الأوامر التي يصدرها قائده موسى بن نصير، مما يعبر عن التنسيق التام بين القائدين.

وإذا كان موسى وطارق، قد عقدا مجلساً حربياً، فالهدف ليس إزالة الخلاف بين القائدين، والحديث عن تأنيب موسى لمولاة طارق، بل الهدف بحث الموقف العسكري العام ومناقشة المرحلة التالية من الفتح. وهنا تسقط ادعاءات المنافسة بينهما التي كثر حولها الجدل.

ففي ربيع سنة 95هـ/ 714م، سار موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد نحو

---

(1) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 35، 36.
الضبي: بغية الملتمس في أخبار رجال الأندلس، ص 8.
(2) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص 80.

سرقسطة التي سماها العرب «المدينة البيضاء». ثم سلك كل منهما طريقاً، فسار طارق بحذاء الضفة اليسرى لنهر إيرو، فدخل إقليم شية في طاعة المسلمين، واستولى على أماية واستورقة. في حين سار موسى بحذاء الضفة اليمنى لنهر إيرو، وافتتح حصن بارو، ودخل اشتوريش، وبلغ شاطيء البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية.

وهذا كله، يؤكد أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، لم يطلب استقدام موسى وطارق إلى دمشق، لحل الخلاف بينهما، كما اشار جرجي زيدان، بل لأسباب أخرى تتعلق بالفتح العربي الإسلامي للأندلس، وضرورة التريث، في كل مرحلة كبيرة من مراحل الفتح.

7 ـ عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق (95 ـ 96هـ/ 714 ـ 715م)

أثناء تحرك موسى بن نصير لفتح شمال الأندلس، جاء مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك، يأمره بالخروج من الأندلس وإيقاف الفتح، والعودة إلى دمشق. وتمكن موسى من إقناع رسول الخليفة بالتمهل قليلاً ريثما يفتح جليقية[1]، وعندما تأخر في العودة، أرسل الخليفة رسولاً آخر يكنى أبا نصر، فلم يجد بدأ من العودة، ووافاه طارق بن زياد في الطريق.

عاد موسى بصحبة طارق ورسولي الخليفة إلى جنوب الأندلس، فوصلوا طليطلة، ومنها إلى قرطبة، ثم إشبيلية. ثم مضى إلى دمشق ومعه مائة من أشراف العرب ومائة من قادة البربر، ويجر وراءه الشيء الكثير من غنائم الأندلس، فمر بالقيروان ثم بمصر. وفي فلسطين، قيل وافاه الأمير سليمان بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد وولي عهده، كما قيل أنه كتب إليه، طالباً منه الإبطاء، لأن الخليفة مريض، فيدخل موسى دمشق بتلك الغنائم في أول خلافة سليمان، فيعظم ذلك مقامه. لكن

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 258.

موسى رفض هذا الطلب، ووصل دمشق في جمادى الأولى 96 هـ/ كانون الثاني 715م والخليفة يحتضر، فحقد عليه سليمان بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد أربعين يوماً من وصوله، وصب جام غضبه عليه[1].

ومع ذلك، لا يمكن الجزم بهذه الرواية، ولعل موقف سليمان بن عبد الملك يعود إلى ما بلغه من سعي موسى بن نصير لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولى أولاده الثلاثة عليهما[2]. دون إغفال العملة الذهبية والبرونزية التي ضربها في دار السكة القوطية بطليطلة[3] لصرف رواتب الجند سنة 94 هـ/ 713م، وكانت العملة الذهبية تحمل نقوشاً كتابية لاتينية وعربية، في حين حملت العملة البرونزية اسم موسى بن نصير وصورة وجهين.

وقيل أن موسى بن نصير مات فقيراً منسياً في بلاد الشام، وهو في طريقه إلى الحج سنة 97هـ/ 719م. كما قيل أن سليمان بن عبد الملك عفا عنه بفضل تدخل عمر بن عبد العزيز، فاستبقاه إلى جانبه رحمة بشيخوخته وقد شارف الثمانين، وأنه كان برفقته عندما مات وهو في طريقه إلى الحج[4].

ومما لا شك فيه أن طارق بن زياد قدم إلى دمشق مع موسى بن نصير، لتنتهي قصته أيضاً في صمت. مما يستدعي التوقف قليلاً، عند نهاية معظم القادة الفاتحين الذين صنعوا الانتصارات التاريخية التي قامت عليها الدولة العربية الإسلامية، وهي نهاية تتطلب دراسة خاصة. فقد أثبت موسى بن نصير في المغرب والأندلس، كما أثبت طارق بن زياد في الأندلس، أنهما من أعظم قادة المسلمين، لا يقلان شأناً عن خالد بن الوليد سيف الله المسلول، ولم يمت الثلاثة في المعركة، بل على فراش الموت[5].

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 262.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 30.

(3) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 99.

(4) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص 184.

(5) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 81.

الفصل الثالث

فشل فتح بلاد غالة (فرنسا) ونمو حركة المقاومة المسيحية (98 ـ 114 هـ/ 717 ـ 732م)

1 ـ اغتيال عبد العزيز بن موسى (98هـ/ 717م)
2 ـ محاولة فتح بلاد غالة (فرنسا) (98 ـ 113هـ/ 717 ـ 731م)
3 ـ عبد الرحمن الغافقي وفتح مدينة بوردو
4 ـ اعتماد العرب على اليهود في بيع أسرى النصارى
5 ـ هزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الغافقي في بواتييه «بلاط الشهداء» (1 ـ 7 رمضان 114 هـ/ 25 ـ 31 تشرين الأول 732م)

برزت بطولة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي، وتم فتح بوردو، وما لبث أن تراجع التوسع العربي الاسلامي لينكمش داخل الأندلس على أثر استشهاد هذا القائد العربي في موقعة بواتييه أو «بلاط الشهداء» داخل بلاد غالة «فرنسا» سنة 114 هـ/ 732م. وهي الموقعة التي انتصر فيها قائد الفرنجة شارل الذي تحمل الرواية اسمه مع اسم عبد الرحمن الغافقي، ونتيجة انتصاره أطلق عليه البابا لقب «مارتل» أي المطرقة.

1 ـ اغتيال عبد العزيز بن موسى (98هـ/ 717م)

تعرض عبد العزيز بن موسى، لمؤامرة دبرها كبار قواده يتقدمهم حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي، فاغتالوه سنة 98هـ/ 717م[1]. ثم أشاعوا أنه تنصر بعد زواجه من أيلة Egilona أرملة رودريك التي أصبحت تعرف بـــ «أم عاصم»، وأنه بتاثير منها، وبعدما بلغته الأخبار عن المعاملة السيئة التي لقيها والده من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، عازم على خلع الدعوة لبني أمية والاستقلال بالأندلس.

فهل كانت النهاية الحزينة لموسى بن نصير، ثم اغتيال ابنه عبد العزيز، هي

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 21.
ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 31.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 11.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية والأندلس، ص 213

التي عرقلت طموح هذين القائدين العربيين، في فتح أوروبا، وهو الطموح الذي أدى إلى التخلص منهما خشية منافستهما الخليفة الأموي نفسه؟

ومهما يكن، يبدو أن العلاقة بين عبد العزيز بن موسى وبين كبار قادة الجيش كانت سيئة للغاية. ولا يمنع أن تكون الشهرة التي نالها موسى بن نصير مع أولاده الثلاثة عبد العزيز الذي استخلفه على الأندلس وعبد الله الذي استخلفه على أفريقية ومروان الذي ولاه طنجة، كافية لغيرة القادة وحسدهم، لأن كلاً منهم يطمح في ولاية الأندلس أو أفريقية. كما لا يمنع أن يثير مثل هذا الأمر خشية الخليفة الأموي نفسه من نفوذ موسى بن نصير وأولاده في منطقة واسعة داخل المغرب والأندلس، فاستبقى موسى إلى جانبه، وولى محمد بن يزيد على أفريقية مكان الإبن الأكبر عبد الله. وعندما تولى أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، ولاية الأندلس بعد مقتل عبد العزيز، عزله سليمان بن عبد الملك بعد ستة أشهر من ولايته، فماذا يمنع لو كان الخليفة من دس على عبد العزيز بن موسى من قتله[1]؟

ولكن مما لا شك فيه، أن موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز ابن موسى، هم القادة الثلاثة الكبار الذين يعود الفضل إليهم في فتح الأندلس. كما أن عبد العزيز بن موسى، رغم قصر ولايته، كان من أعظم ولاة الأندلس، ويعود له الفضل في استكمال فتح الأندلس وتثبيت دعائم السيادة العربية الإسلامية. وهو أول من نظم البلاد إدارياً، ومهد لاستعراب السكان القوط، وتزوج من أجيلا القوطية أرملة رودريك ضمن هذا السياق. وهذا ما سهل الأمر أمام التوسع العربي الإسلامي في فرنسا ثم تراجعه.

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 32.
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 11.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص 170 ــ 173.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 263.

2 ـ محاولة فتح بلاد غالة «فرنسا»
(98 ـ 113 هـ/ 717 ـ 731 م)

تحولت الأندلس، بعد استكمال فتحها سنة 97هـ/ 716م، إلى ولاية عربية إسلامية، غير مستقلة وغير وراثية، تابعة للخلافة الأموية بدمشق طيلة إحدى وأربعين سنة (97 ـ 138هـ/ 716 ـ 756م). وكان أمير القيروان هو الذي يعين ولاة الأندلس أغلب الأحيان[1].

وكان من الطبيعي أن لا يتوقف الفتح العربي الإسلامي عند الأندلس التي تمثل البوابة الغربية لأوروبا، لأن عبور جبال البرت (البرينيه) وفتح بلاد غالة (فرنسا)، يعني فتح جنوب القارة الأوروبية بأسره وصولاً إلى القسطنطينية على ضفاف البوسفور، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة عربية إسلامية.

وكانت بلاد غالة، منقسمة إلى إمارات مستقلة، ففي الجنوب المتاخم للأندلس، توجد إمارة سبتمانيا Septimanie أي المدن السبع: العاصمة أربونة ونيم وآجد وبيزييه ولوداف وقرقشونه وماغليون، فضلاً عن دوقية أكيتانيا وعاصمتها برديل «بوردو». وفي الشرق على نهر الرون، تقع إمارة بروفانس وعاصمتها أفينيون، وإمارة برغنديا وعاصمتها ليون، وكانت المنطقة الشمالية تابعة لمملكة الفرنجة «الميروفنجية»[2]. وعرفت هذه الأقاليم مجتمعة أيضاً باسم «الأرض الكبيرة»[3].

ولعل الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي تولى الأندلس طيلة سنتين وثمانية أشهر (98 ـ 100هـ/ 717 ـ 719 م)، هو أول من غزا بلاد غالة حتى مدينة أربونة[4]. ولكن مما لا شك فيه، أن المحاولة الفعلية لفتح هذه البلاد ارتبطت بجهود

---

(1) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 81.

(2) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 137.

(3) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T1, P 56, 57.

(4) Codera: Limites Probables de la Conquista arabe en la condillera pirenaica, P 111.

نقلاً عن السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 134.

أربعة من كبار الولاة عبروا جبال البرت واستشهدوا جميعاً، وهم: السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد في طلوشة (تولوز) في 9 ذي الحجة 102هـ/ 10 حزيران 721م، وعنبسة بن سحيم الكلبي الذي استشهد لدى بلوغه بلدة سانس سنة 107هـ/ 725م، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في بواتييه «بلاط الشهداء» سنة 114هـ/ 732 م.

تمكن السمح من فتح أربونة[1] Narbonne عاصمة سبتمانيا، فتحولت هذه المدينة إلى قاعدة عربية إسلامية للانطلاق نحو فتح بلاد غالة. ثم دخل دوقية أكيتانيا ليحاصر مدينة طلوشة Toulouse، فتصدى له الدوق أودو قرب أسوار المدينة، في موقعة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده في يوم الثلاثاء 9 ذي الحجة 102هـ/ 10 حزيران 721م، ليقود عبد الرحمن الغافقي عملية الانسحاب، وينقذ بقايا الحملة متراجعاً نحو أربونة.

وتمكن عنبسة من استكمال فتح إمارة سبتمانيا بمدنها السبع، فدخل قرقشونة عنوة، وفتح نيم دون مقاومة. ثم اتجه حتى بلغ مدينة ليون وفتحها. لكنه لم يتوغل في اكيتانيا كما فعل السمح بن مالك، ويعود ذلك إلى تحالفه مع الدوق أودو الذي ساعده في فتح إقليم برغندية حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي الرون يوم الأربعاء 7 ربيع الثاني 107هـ/ 22 آب 725م. ولعل هذا التحالف هو الذي حقق الانتصارات المتتالية التي لم تكن متوقعة من مثل هذه الحملة[2] والتي قيل أنها وصلت أمام بلدة سانس Sens، وهي لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلو متراً جنوب باريس، وقد صمدت بسبب شجاعة أسقفها إيبون Ebbon[3].

ولم يبادر عنبسة بن سحيم إلى ترك حاميات عسكرية في المدن التي فتحها، بل كان يغادرها بسرعة، وهذا ما حرم العرب المسلمين من إنجازات هامة. فعندما

---

(1) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 58.

(2) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 253.

(3) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 59.

قرر عنبسة العودة إلى قرطبة التي كانت تشهد بعض الاضطرابات، تصدى له الفرنجة في طريق العودة، واستشهد في إحدى المعارك[1]، ليقود عذرة بن عبد الله الفهري فلول الحملة متراجعاً إلى أربونة.

3 ــ عبد الرحمن الغافقي وفتح مدينة بوردو

مرت الأندلس، بعد استشهاد عنبسة بن سحيم، بفترة اضطرابات نتيجة الخلافات التي نشبت بين المسلمين. فقد تعاقب عليها ستة ولاة خلال ست سنوات فقط (107 ــ 113هـ/ 725 ــ 731م)، توقفت معها حملات الفتح، رغم الحملة العسكرية المحدودة التي اتجهت نحو بورغنديا زمن الوالي الهيثم بن عبيد الكناني سنة 111هـ/ 729م.

تقلد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ولاية الأندلس من قبل أمير القيروان عبيد الله بن الحبحاب، فدخلها سنة 113هـ/ 731م، وهو متحمس للجهاد والفتح، بعد طول انتظار. فهو لم ينس هزيمة تولوز واستشهاد السمح بن مالك في 9 ذي الحجة 102 هـ/ 10 حزيران 721، عندما قاد بنفسه فلول الحملة منسحباً نحو أربونة.

لذلك، أخذ عبد الرحمن الغافقي، يعد العدة لفتح بلاد غالة، وفق خطة مدروسة، ومنظمة، في وقت اشتد فيه الصراع القبلي بين العرب داخل الأندلس، مما جعل غالبية الجيش الكبير الذي احتشد حوله من البربر. ومثل هذا الجيش الذي يتراوح بين خمس وسبعين ألفاً ومائة ألف، كفيل بتحقيق النصر وفتح بلاد غالة فتحاً منظماً، إن لم يكن متابعة الفتح في سائر أوروبا.

كان هدف عبد الرحمن الغافقي الرئيسي، هو دوقية أكيتانيا ثم مملكة الفرنجة «الميروفنجية». لذلك لم تسلك حملته الطريق التقليدي الذي سلكته حملة السمح بن مالك أو حملة عنبسة بن سحيم عبر إقليم سبتمانيا، بل خرج من بنبلونه عاصمة نبرة

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 26.

صيف سنة 114هـ/ 732م، وعبر ممر الرونسفال في جبال البيرينيه[1]، متجهاً رأساً نحو أكيتانيا، في الوقت الذي أرسل فيه فرقة إلى وادي الرون لاستعادة مدينة آرل جنوباً في عملية إلهاء عن هدفه الرئيسي شمالاً. وأنزل الهزيمة بالدوق أودو عند الدوردوني أحد روافد نهر الغارون، ليتقهقر شمالاً مستنجداً بشارل، في حين عبر عبد الرحمن الغافقي هذا النهر، وفتح عنوة العاصمة بوردو التي تقع عند مصبه.

4 ـ اعتماد العرب على اليهود في بيع أسرى النصارى

بعد فتح مدينة بوردو، وتقسيم الغنائم، يذكر جرجي زيدان، أن القائد هانىء تحول إلى الأسرى وكانوا عديدين، وقد شد بعضهم إلى بعض بالحبال أو السلاسل، والتفت إلى القواد قائلاً لهم: «إن هؤلاء الأسرى من جملة الغنائم ولكن اقتسامهم متعذر فاعرضوهم للبيع، أين التجار»[2]. «ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان وقرطبة وغيرهما من مدن الإسلام، وكانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من أمثال هذه التجارة»[3].

ثم يصف كيفية شراء التاجر اليهودي هرون للأسرى، حيث «اشترى الأسير بدينار»[4]. كما يصف عملية بيع السبايا «وكانوا قد صفوهم صفوفاً نساءً وأطفالاً، فمر بهم (القائد هانىء) الهوينا وهو يتفرس في الوجوه، والنساء يتضرعن إليه بالايماء والعطاء لأنهن لا يعرفن العربية، وهو لا يلتفت إلى أحد»[5].

حدد جرجي زيدان «ثمن المرأة بخمسة دنانير، والغلام بدينار»[6]. لمن يتقدم أولاً للاختيار، والذي يتقدم ثانية يدفع نصف هذه القيمة.

كما طرح جرجي زيدان قضية انتقام اليهود من الأسرى النصارى. صحيح

---

(1) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 265.
(2) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 13.
(3) المرجع نفسه، ص 14.
(4) المرجع نفسه، ص 14.
(5) المرجع نفسه، ص 14.
(6) المرجع نفسه، ص 15.

حسب قول عبد الرحمن الغافقي: «ولكن اليهود تجار نبيعهم الأسرى بالمال، فمن أراد من أهل البلاد أن يفتدي أسيره افتداه منهم بالمال»[1]. إلاّ أن سالمة طلبت من عبد الرحمن منع بيع اسرى النصارى إلى اليهود[2]، لأن «بعض اليهود يبتاعون الأسرى للتنكيل بهم انتقاماً لما كانوا يسامونه على أيديهم من قبل، وكثيراً ما ابتاع اليهود أسرى النصارى ثم قتلوهم سراً»[3].

ثم يغمز جرجي زيدان من قناة العرب المسلمين، بحديثه عن «داتوس» وهو شاب إفرنجي يكره العرب، ويحاول قتل كل عربي يشاهده. وحكاية داتوس، رُويت في صفحة واحدة[4] من رواية «شارل وعبد الرحمن»، وموجزها أنه سار إلى الحرب، «فدخل المسلمون بلدته ونهبوا بيته وساقوا أمه إلى قلعتهم القريبة في جملة السبايا... فلما عاد الشباب من ميدان القتال وعلم بما حدث لأمه، ساق جواده إلى تلك القلعة ومعه بعض رفاقه. وهناك وجدوا القلعة موصدة وأطل عليهم بعض المسلمين من فوق سورها سائلين عن غرضهم. فقال لهم: إن أمي أسيرة عندكم وقد جئت لآخذها، فقالوا له: لا نعطيك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه، وإلا فإننا نذبحها أمام عينيك»[5]. وعندما رفض داتوس، رآهم احتزوا رأسها ورموه إليه... ولما أعجزه الوصول إلى القاتلين لاحتجابهم وراء الأسوار جعل يلطم وجهه ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالاً كالمجنون... وقد مضى على داتوس بضعة أعوام لا يتكلم ولا يجالس أحداً كأنه أصيب ببله»[6].

مثل هذا الكلام يسيء إلى العرب المسلمين، إذ يصفهم بـــ «القاتلين» الذين يهددون الأسرى بـــ «الذبح»، وهذا ليس من شيمة الفاتحين العرب الذين حددوا

---

(1) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 36.
(2) المرجع نفسه، ص 35.
(3) المرجع نفسه، ص 36.
(4) المرجع نفسه، ص 87.
(5) المرجع نفسه، ص 87.
(6) المرجع نفسه، ص 87.

شروط افتداء الأسرى وهم يعاملون معاملة حسنة ومثل حكاية داتوس هي من بنات أفكار جرجي زيدان، ليدخلها ضمن سياق الرواية، وحتى لو كانت حقيقة تاريخية، فإنها لا تعدو كونها حادثة فردية لا تشير أبداً إلى أخلاق العرب المسلمين. وجرجي زيدان نفسه، يعود ويذكر هذه المعاملة الحسنة، عندما يصف وصول حسان وسالمة إلى بوردو، فيقول: «وكانا قد أشرفا على أسوار بوردو، فرأيا الناس خارج السور زرافات ووحداناً، وقد خرجوا لافتداء أسراهم فرحين بما عوملوا به من الرفق، وإن كان اليهود قد ضاقوا بهذا الرفق ذرعاً، ولا سيما من كانوا قد ابتاعوا الأسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم، ثم جاءهم الأمر بالتخلي عنهم فأذعنوا كارهين»[1].

ومثل هذا الكلام أيضاً، يطرح الشك حول من ذبح أم داتوس إن كانت حكايته حقيقة تاريخية، فلماذا لا يكون اليهود وليس العرب المسلمون هم من ذبحوا تلك المرأة لأنهم لم يحصلوا على جواد داتوس. وبخاصة أن جرجي زيدان ركز على قضية انتقام اليهود من الأسرى النصارى.

5 ـ هزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الغافقي في بواتييه «بلاط الشهداء» (1 ـ 7 رمضان 114 هـ/ 31 تشرين الأول 732 م)

كانت النزاعات الداخلية، سواء بين العرب والبربر من جهة، أو بين العرب أنفسهم وقد انقسموا إلى حزبين قيسي ويمني، من العوامل التي أدت إلى هزيمة عبد الرحمن الغافقي في «بلاط الشهداء» واستشهاده في 7 رمضان 114هـ/ 31 تشرين الأول 732م. كما كان سوء معاملة الولاة العرب للبربر، ضمن سياق السياسة الأموية القائمة على تفضيل الجنس العربي، دافعاً للبربر لاتباع مذهب الخوارج، وإعلان الثورة في المغرب ثم الأندلس[2].

---

(1) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 81.

(2) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 97.

بدأ النزاع بين العرب والبربر في المغرب، منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم على أفريقية[1] (القيروان في عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك سنة 101هـ/ 720م، وهو أول خليفة أموي يعلن تأييده المطلق للحزب القيسي (عرب الشمال) ضد الحزب اليمني (عرب الجنوب). فقد كانت سياسة الدولة الأموية تقوم على مبدأ سيادة الجنس العربي وتفضيله على بقية العناصر التي انضوت تحت راية الإسلام.

ومن جهة ثانية أدرك شارل الخطر المحدق، بمملكة الفرنجة «الميروفنجية»، بعد سقوط أكيتانيا، فجمع الجيوش من سائر أنحاء غالة، وطلب الجند الشماليين من حدود الرين. وبذلك تلاحم الفرنجة ومن انضم إليهم من الألمان والسواف والسكسون، عندما شعروا بالخطر الكبير، ولبّوا نداء شارل الذي بدوره تناسى خلافه مع أودو دوق أكيتانيا، متحالفاً معه. في حين كان جيش عبد الرحمن الغافقي غير متماسك نتيجة نقمة البربر منذ مقتل زعيمهم مونوسة، والصراع القبلي بين العرب اليمنيين والقيسيين، مما ساهم في تفرق وحدة المسلمين[2].

ومن أسباب الهزيمة تحالف أودو دوق أكيتانيا مع قائد الفرنجة شارل، وهو الحليف السابق للعرب المسلمين. فقد أخطأ عبد الرحمن الغافقي بعدم الحفاظ على مثل هذا التحالف مع أودو، على غرار ما فعله موسى بن نصير وطارق بن زياد بتحالفهما مع يوليان حاكم سبتة قبل فتح الأندلس.

يبدو أن عبد الرحمن الغافقي، لم يستفد من تجربة عنبسة بن سحيم الكلبي الذي تحالف مع أودو دوق أكيتانيا. فقد كان فتح بلاد غالة بحاجة إلى مثل هذا الدوق، على غرار يوليان حاكم سبتة الذي قدم العون الكبير لطارق بن زياد حتى تم له فتح الأندلس.

أصبح مونوسة البربري حليفاً للدوق أودو، وكان عاملاً على شرطانية. وكاد

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 32.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 1 ص 48.
(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 219.

أن يتم للمباجة تنفيذ المكيدة التي دبرتها مع أبيها، فأخذ مونوسة ينصح عبد الرحمن الغافقي بعدم التعرض لدوقية أكيتانيا. لكن عبد الرحمن الغافقي علم بالأمر، فسارع إلى إنقاذ العرب من ذلك الخطر، عندما أدرك أن مونوسة لن يقاتل إلى جانبه، فقبض عليه، واجتز راسه، كما أسر زوجته لمباجة وأرسلها في جملة الغنائم إلى الخليفة الأموي بدمشق[1]. وأحبطت بذلك مكيدة لمباجة وأبيها[2].

وبمقتل مونوسة البربري وأسر زوجته الأكيتانية، تحالف أودو دوق أكيتانيا مع شارل محافظ القصر في مملكة الفرنجة «الميروفنجية»، ويعرف أيضاً باسم كارلو KARLO[2]، وفي المصادر العربية قارلة.

ومع هزيمة «بلاط الشهداء» أو «بواتييه»، توقف الفتح العربي الإسلامي ما وراء جبال البيرينيه، لا بسبب قوة الفرنجة، بل نتيجة الفتن والاضطرابات التي حلت بالمغرب والأندلس، مما شجع شارل مارتل على الزحف جنوباً واسترداد ما فتحه العرب المسلمون. ورغم ذلك ظلت أربونة ثغرة عربية إسلامية في مملكة الفرنجة لم يتمكن شارل مارتل من استعادتها، لكنها ما لبثت أن سقطت، رغم دفاعها المستميت، على يد ابنه ببان الثاني المعروف ببان القصير BREF DE PEPIN سنة 133 هـ/ 751م[4]، وقيل سنة 141 هـ/ 759م[5]، وبذلك انقطع الاتصال بين الأندلس وسبتمانيا. وهذه هي النتيجة الحتمية للنزاعات الداخلية، سواء بين العرب والبربر، أو بين العرب أنفسهم، حيث لا يمكن لأي جيش أن يستمر في الجهاد والفتح في ظل الانقسامات، بل يجد نفسه في مواجهة أيضاً مع نمو حركة المقاومة المسيحية بين أهل البلاد المفتوحة.

كانت ثغرة كوفادونجا التي أهملها الفتح العربي الإسلامي للأندلس، بمثابة

---

(1) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ص 148.

(2) جرجي زيدان: شارل وعبد الرحمن، ص 126.

(3) Lévi – Provençal: Histoire de l’Espagne Musulmane, T 1, P 55.

(4) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 150.

(5) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 291.

نواة دولة اسبانيا المسيحية، فمنها انطلقت حركة المقاومة بقيادة بلاي (توفي سنة 119هـ/ 737م) الذي تحول إلى ما يشبه الأسطورة لدى الإسبان في ما بعد. فقد تمكن من بث روح المقاومة لدى المسيحيين في شمال الأندلس، وهو يؤسس مملكة اشتوريش «استورقة» الصغيرة التي أخذت تنمو وتتسع، وهي تضم المناطق التي هجرها العرب المسلمون مثل جيليقية واستورقة والمدن الواقعة خلف الجبال، وذلك بسبب ثورة البربر. وأثناء الصراع بين أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي وثوابة ابن سلامة الجذامي سنة 128هـ/ 745م، ضمت هذه المملكة مناطق جديدة هجرها المسلمون بما فيها مدينة ليون والركن الشمالي الغربي من الأندلس الذي صار يعرف بمملكة ليون، وذلك على يد حفيد بلاي الملك الفونسو الأول (122 ـ 140هـ/ 739 ـ 757م) ويسميه العرب أذفونش بن بطرة أو القاطوليقي، أي الكاثوليكي[1].

وأقامت مملكة ليون سلسلة من القلاع والحصون، وعينت عليها أمراء يتمتعون بالاستقلال الذاتي ليتمكنوا من رد هجمات المسلمين، وعرفت باسم منطقة القلاع Castellas، وهي القلاع التي اتحدت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بزعامة أقوى أمرائها فرنان غونزالس Gonsales Fernan، وصارت تعرف بمملكة Castilla المستقلة عن مملكة ليون، أو «قشتالة» كما ورد في المصادر العربية[2].

وهكذا، فإن النزاعات الداخلية التي شهدتها الأندلس طيلة أربع وعشرين سنة (114 ـ 138هـ/ 732 ـ 756م)، تعتبر العامل الرئيسي في توقف عمليات الفتح من جهة، وفي نمو حركة المقاومة المسيحية من جهة ثانية، مما نتج عنه قيام مملكة ليون ثم مملكة قشتالة.

هذا في الوقت الذي استمر فيه الصراع بين البربر والعرب، فاندلعت ثورات البربر في المغرب والأندلس، فضلاً عن الصراع بين العرب أنفسهم الذين انقسموا إلى قيسية ويمنية.

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص 372.
(2) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 96.

الفصل الرابع

الامارة الأموية في الأندلس
(138 ـ 316هـ/ 756 ـ 929م)

1 ـ الأمير عبد الرحمن الأول الداخل وتأسيس الامارة الأموية
(138 ـ 172هـ/ 756 ـ 788م)
أ ـ سياسته الداخلية
ب ـ سياسته الخارجة مع أبي جعفر المنصور وشارلمان
2 ـ الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» والعصر الذهبي
(206 ـ 238هـ/ 822 ـ 852م)
أ ـ سياسته الداخلية
ب ـ سياسته الخارجية
3 ـ ضعف السلطة المركزية في العاصمة قرطبة
(238 ـ 300هـ/ 852 ـ 912م)

تحولت الأندلس بعد فتحها، إلى ولاية عربية إسلامية، تابعة للخلافة الأموية بدمشق طيلة أربعين سنة (97 ــ 138 هــ/ 716 ــ 756م). وبسقوط العاصمة الأموية دمشق في 25 رمضان 132هــ/ 7 أيار 750م، واجهاز العباسيين على من تبقى من الأمراء الأمويين، تمكن أمير واحد، هو عبد الرحمن بن معاوية «الداخل» من الفرار إلى المغرب، ثم إلى الأندلس، ليؤسس إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت طيلة 173 سنة (138 ــ 316هــ/ 756 ــ 929). وعرفت هذه الامارة الأموية عصرها الذهبي عهد عبد الرحمن الثاني.

1 ــ الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» وتأسيس الإمارة الأموية (138 ــ 172هــ/ 756 ــ 788م)

قضى الأمير عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، خمس سنوات، منذ فراره من دمشق، وهو يتنقل بين فلسطين، لينطلق نحو مصر ومنها إلى القيروان، حتى استقر عند قبيلة تغزة البربرية التي تنتمي إليها أمه[1]، قرب سبتة[2]، ثم عبر مضيق جبل طارق نحو الأندلس[3].

تمكن الأمير عبد الرحمن بن معاوية، من جمع الفرسان حوله، بسرعة منذ دخوله الأندلس في آخر ربيع الثاني 138هــ/ 11 تشرين الأول 755م، ليبايعه

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 61.

(2) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 664.

(3) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 107.

جميع أهل غرب الأندلس[1]، بعد دخوله اشبيلية في شوال 138هـ/ آذار 756م. ثم دخل العاصمة قرطبة، بعد انزاله الهزيمة بجيش الولاية بقيادة يوسف الفهري وحليفه الصميل بن حاتم، في معركة المصّارة في 10 ذي الحجة 138هـ/ 15 ايار 756م. وبدخول عبد الرحمن بن معاوية إلى قرطبة، لقب بـ «الداخل»، أي الداخل إلى الأندلس التي تحولت معه إلى إمارة أموية وراثية مستقلة عن الخلافة العباسية[2]. كما عرف بالأمير عبد الرحمن الأول، لأنه أول ثلاثة أمراء حملوا هذا الاسم وتولوا امارة الأندلس.

لم يعلن الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل»، نفسه خليفة، لشعوره بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعي هو حامي الحرمين مكة والمدينة[3]، وثالثهما بيت المقدس، أي الخليفة العباسي الذي اكتفى بقطع الدعاء له.

أ ــ سياسته الداخلية

ويعد قصر الرصافة الصيفي في شمال غرب قرطبة، أهم انجازات الأمير عبد الرحمن الأول الذي بناه على غرار قصر جده الخليفة هشام بن عبد الملك خارج مدينة دمشق[4]، حيث كان يحمل الاسم نفسه، لأن الرصافة تعني المدينة الجانبية بجوار العاصمة[5].

ولا يقل جامع قرطبة أهمية عن قصر الرصافة، فقد بناه الأمير عبد الرحمن الأول سنة 169هـ/ 785م، بعد أن ضم إليه الأرض الصغيرة التي كانت تقوم عليها كنيسة سان بنجنت[6]، على غرار ما فعله الوليد بن عبد الملك عند بنائه للجامع الأموي بدمشق. فلا غرو أن تبدو في جامع قرطبة المؤثرات الشامية المقتبسة من الجامع

---

(1) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 25.
(2) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى افردوس المفقود، ص 109.
(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 228.
(4) المقري: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 190.
(5) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 116.
(6) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 209.

الأموي بدمشق[1].

وعمد الأمير عبد الرحمن الأول، على تحصين العاصمة قرطبة بسور، لحمايتها من الثورات الداخلية، سواء من العرب أو البربر، والتي قضى طيلة حكمه، وهو يواجهها، معتمداً أيضاً على جيش قوي قيل أنه بلغ المئة ألف، وأن حامية قرطبة بلغت أربعين ألفاً[2].

ب ـ سياسته الخارجية مع أبي جعفر المنصور وشارلمان

حاول الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، استرداد الأندلس، لتعود ولاية عباسية، فدعم العلاء بن مغيث البحصبي قائد حامية باجة جنوب غرب الأندلس، ووعده بأن يكون والياً على الأندلس.

لكن الأمير عبد الرحمن الأول، انتصر على العلاء، وتمكن من قتله مع عدد كبير من رجاله سنة 147هـ/ 764م. فأدرك أبو جعفر المنصور خطورة هذا الأمير الأموي الذي اتبع سياسته الشدة والعنف، في مواجهة الثورات ضده[3]، فأطلق عليه لقب «صقر قريش»[4]، وهو يقول: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»[5].

حاول شارلمان ملك الدولة الكارولخية استرداد الأندلس من العرب المسلمين، بدعم مادي ومعنوي من البابوية، بهدف تأمين حدوده الجنوبية، قبل تحقيق مشروعه الكبير المتمثل بإحياء الامبراطورية الغربية «الرومانية المقدسة» واتفق مع سليمان بن يقظان «الأعرابي» حاكم سرقسطة في شمال الأندلس الذي ثار ضد الأمير عبد الرحمن الأول.

وما إن عبر شارلمان ممر الرونسفال في جبال البيرينيه سنة 161هـ/

---

(1) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 129.

(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 2، ص 24، 67.

(3) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 112.

(4) ابن الخطيب: أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، ص 9، 10.

(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص 34.

778م، حتى خرج والي سرقسطة سليمان بن يقظان الاعرابي لاستقباله، فانقلب عليه الحسين بن يحي الأنصاري الذي تزعم أهالي سرقسطة، رافضاً تسليم المدينة إلى ملك أجنبي مسيحي، فاضطر شارلمان إلى الانسحاب.

حلت الكارثة بحملة شارلمان، في طريق العودة، وهي تعبر ممر الرونسفال، بعد أن تعرضت لهجوم مفاجيء من قبائل «البشكنس[1] في 16 ذي القعدة 161هـ/ 15 آب 778م، فقتل عدد كبير من كبار القادة، ومن بينهم «رولان» الذي تحول إلى أسطورة بعد ثلاثة قرون، مع وضع الملحمة الفرنسية التي تشيد ببطولته والتي عرفت باسم «أنشودة رولان»، والهدف منها تمجيد شارلمان بطل المسيحية على الرغم من هزيمته الكبرى سواء أمام الأمير عبد الرحمن الأول، أو أمام قبائل البشكنس، ما يعني أن أنشودة رولان تحمل وقائع بعيدة عن الحقيقة التاريخية[2].

وبذلك فشل ملك الدولة الكارولنجية شارلمان من استرداد الأندلس، كما فشل قبله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في اعادتها ولاية عباسية تابعة له، ماكرّس حكم الأمير عبد الرحمن الأول حتى تحولت معه قرطبة إلى عاصمة لامارة أموية مستقلة لا تقل ازدهاراً عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

2 ـ الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» والعصر الذهبي (206 ـ 238هـ/ 822 ـ 852م)

برزت مشكلة وراثة الامارة في الأندلس، بوفاة الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» في جمادي الأولى 172هـ/ تشرين الأول 788م، وكان الصراع بين أبنائه الثلاثة، حتى تمكن هشام الأول «الرضا» من تولي الامارة طيلة ثماني سنوات (172 ـ 180هـ/ 788 ـ 796م) قضاها في محاربة أخيه الأكبر سليمان ثم نفيه مع أخيه الآخر وعبد الله إلى المغرب. وكذلك فعل ابنه الحكم الأول «الربضي»، من

---

(1) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 124.

(2) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 11.

بعده، فقد تولى الامارة طيلة ست وعشرين سنة (180 ــ 206هــ/ 796 ــ 822م)، بدأها بمحاربة عمه سليمان وقتله، بينما صالح عمه الآخر عبد الله على حكم بلنسية طيلة حياته. ثم عهد الحكم الأول الربضي بولاية العهد إلى ابنه الأكبر عبد الرحمن الذي تولى إمارة الأندلس بعد وفاة أبيه سنة 206هــ/ 822، ليحمل اسم الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، وهو لا يتجاوز الثلاثين.

أ ــ سياسته الداخلية

عرفت الامارة الأموية في الأندلس، عصرها الذهبي، طيلة فترة حكم الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» التي امتدى إحدى وثلاثين سنة (206 ــ 238هــ/ 822 ــ 852م). تمكن خلالها من القضاء على الثورات والفتن، مثل فتنة تدمير بين اليمنية والقيسية في تدمير[1] (207 ــ 213هــ/ 823 ــ 828م)، وثورة البربر في ماردة[2] (213 ــ 219هــ/ 828 ــ 834م)، وثورة المولدين في طليطلة[3] (214 ــ 222هــ/ 829 ــ 837م). والمولدون، هم خليط من نسل أهل البلاد الأصليين ومن العرب والبربر الفاتحين، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات اسبانيات، ونشأوا على الإسلام[4].

وكذلك قضى على فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة (235 ــ 244هــ/ 850 ــ 859م)، والمستعربون[5] هم المسيحيون سكان البلاد الأصليين الذين احتفظوا بدينهم، واختلطوا بالعرب، وتكلموا اللغة العربية إلى جانب لغتهم الروماسنية المشتقة، من اللاتينية والتي منها تكونت اللغة الإسبانية.

يعد الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، أول من وضع أسس الحضارة

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جــ 2، ص 124.
(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 67.
(3) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جــ 2 ص 104.
(4) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 127.
(5) Lévi – Provençal: Histoire de l’Espagne Musulmane, T 1, P 225, 226, 236.

الأندلسية، لتعيش قرطبة عصرها الذهبي بمؤثرات حضارية جديدة، لم يعرف مثلها العالم العربي الاسلامي من قبل، بعدما امتزجت بالمؤثرات الحضارية الشامية والحجازية، في انفتاح على العاصمة العباسية بغداد، لتؤلف في ما بعد طابعاً أندلسياً أصيلاً تميزت به الأندلس، منذ تحولها إلى خلافة أموية مع عبد الرحمن الثالث سنة 316هـ/ 929م حتى سقوطها النهائي سنة 897هـ/ 1492م.

جعل الأمير عبد الرحمن الثاني، لكل ناحية من نواحي الإدارة وزيراً[1]، في حين لم تعرف بغداد سوى وزير واحد إلى جانب الخليفة العباسي.. وكان يختار أحد وزرائه ليكون بمثابة الوزير الأول الذي أطلق عليه اسم الحاجب[2].

ولحفظ الأمن، وزع الصلاحيات على أربعة هم: صاحب السوق الذي عرف في ما بعد باسم المحتسب، وصاحب الشرطة العليا للنظر في مشاكل كبار القوم، وصاحب الشرطة السفلى للنظر في مشاكل العامة، وصاحب المدينة[3].

ويعد الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، أول من ضرب نقوداً أندلسية باسمه، مع انشائه دار السكة الجديدة في قرطبة[4].

وكذلك عرفت الأندلس في عهده، نهضة عمرانية، فقد بنى قصراً جديداً في قرطبة، وارتفعت مآذن الجوامع، وأشهرها جامع مدينة جيان سنة 210هـ/ 825م، وجامع عمر بن عدبس سنة 214هـ/ 829م. كما وسَّع جامع قرطبة الذي بناه الأمير عبد الرحمن الأول الداخل[5].

وبنى مدينة مرسية سنة 216هـ/ 831م، لتصبح الحاضرة الجديدة لكورة تدمير[6]، بعد هدم مدينة آلو الحاضرة القديمة.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 239، 240.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 62.

(3) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 137.

(4) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 151.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 82، 230.

(6) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 181.

وبرز داخل قصر الأمير عبد الرحمن الثاني في قرطبة، العديد من أشهر الفقهاء العلماء والمغنين والجواري، كان لهم الأثر البارز في التقدم الحضاري الذي شهدته امارة الأندلس مثل: المغني زرياب «أبو الحسن علي بن نافع» الذي وصل قرطبة سنة 207هـ/ 822م، وكان بارعاً في العزف على العود، فكان أول من أضاف إليها وتراً خامساً جعله في الوسط. والفقيه المالكي يحي بن يحي الليثي المتوفي سنة 234هـ/ 848م، والعالم عباس بن فرناس الذي يعد أول من حاول الطيران في التاريخ، حينما صنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور، ليحلق قليلاً في الهواء، قبل أن يسقط على الأرض مصاباً بجروح[1].

وقد لعب الشاعر يحي الغزال دوراً هاماً في توطيد العلاقات الدبلوماسية الأولى بين الإمارة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية التي كانت في حالة حرب مع الدولة العباسية، دون أن يصل التفاهم إلى عقد حلف عسكري بين الأندلس وبيزنطة ضد العباسيين، بسبب رفض الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» محاربة إخوانه في الدين، رغم خلافه معهم.

وعلى الرغم من ذلك كله، لم يتمكن الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، من مواجهة المرأة التي لعبت دوراً هاماً في قصر قرطبة، ممثلة بجاريته طروب[2] التي يعود أصلها إلى قبائل الشكنس الذين هزموا شارلمان في ممر الرونسقال. وطروب هي أم ولده عبد الله الذي عملت على توليته الإمارة بعد أبيه بدلاً من ولي العهد ابنه الأكبر محمد، وحينما رفض الأمير عبد الرحمن الثاني طلبها، لم تتورع عن تدبير مؤامرة لقتله، بالاتفاق مع قائد الحرس نصر الصقلبي سنة 236هـ/ 850م. ولم يعاقب الأمير جاريته طروب، بعد فشل المؤامرة وقتل نصر الصقلبي[3]، ولعل

---

(1) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 141 ـ 143.

(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1 ص 326.

(3) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 76، 77.

مرد ذلك إلى حبه الشديد لها وإغداق الأموال عليها[1].

ولكن، مثل هذه المؤامرة، كانت كفيلة، بضعف السلطة المركزية في قرطبة، إثر وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني في ربيع الثاني 238هـ/ أيلول 852م، وتولية ابنه الأكبر محمد.

2 ـ سياسته الخارجية

اشتهر الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» بغزواته المتتالية ضد مملكة استورقة المسيحية (208 ـ 235هـ/ 823 ـ 848م)، لأنها كانت تهدد الامارة الأموية عند حدودها الشمالية، وتنذر بقيام ممالك مسيحية أخرى[2]. كما اشتهر بشن الغارات البحرية بصورة متواصلة على السواحل الجنوبية للدولة الكارولنجية جنوب فرنسا، أي في البحر المتوسط، طيلة إحدى عشرة سنة (224 ـ 236هـ/ 839 ـ 850م).

لكن الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، أغفل تحصين السواحل الغربية للأندلس التي تطل على المحيط الأطلسي، ما شجع النورمنديين «الڤيكنغ»[3] في شن الغارات سنتي 229 ـ 230هـ/ 844 ـ 845م. والنورمنديون هم من أصل جرماني توزعوا إلى ثلاث مجموعات سويدية ونرويجية ودانمركية، وهذه المجموعة الأخيرة هي التي أغارت على السواحل الغربية لامارة الأندلس[4]، واحتلت اشبيلية[5] مدة اثنين وأربعين يوماً، وأوشكت أن تحتل العاصمة قرطبة، لولا التحرك السريع للأمير عبد الرحمن الثاني وانزال الهزيمة بهم[6].

وعلى الرغم من غزواته، وانزاله الهزيمة بالنورمنديين «الڤيكنغ» والعصر

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 137.
(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1 ص322.
(3) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 137.
(4) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2 ص 130.
(5) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 166.
(6) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 128.

الذهبي الذي عرفته الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط، إلاّ أن هذا العصر اقتصر على حياته، فبعد وفاته ضعفت السلطة المركزية في قرطبة، وتفككت الوحدة السياسية لامارة الأندلس.

3 ـ ضعف السلطة المركزية في العاصمة قرطبة (238 ـ 300هـ/ 852 ـ 912م)

انتهى العصر الذهبي للامارة الأموية في الأندلس، بوفاة الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط سنة 238هـ/ 852م، لتشهد هذه الامارة ضعف السلطة المركزية في العاصمة قرطبة، طيلة ستين سنة (238 ـ 300هـ/ 852 ـ 912م)، توالى خلالها على حكم الامارة ثلاثة، هم: الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني الذي امتد حكمه طيلة خمس وثلاثين سنة (238 ـ 273هـ/ 852 ـ 886م)، ثم ابنه المنذر بن محمد لمدة سنتين فقط (273 ـ 275هـ/ 886 ـ 888م)، ثم ابنه الآخر عبد الله بن محمد لمدة خمس وعشرين سنة (275 ـ 300هـ/ 888 ـ 912م)(1).

تفككت الوحدة السياسية لامارة الأندلس، في عهد هؤلاء الأمراء الثلاثة، ليؤسس بعض الزعماء العرب دويلات مستقلة، فاستقل إبراهيم بن حجاج في اشبيلية وقرمونة. واستقل الأمير سعيد بن جودي السعدي في غرناطة. كما استقل بعض زعماء البربر في طليطلة وجيّان. وأسس المولدون دويلات مستقلة أيضاً، مثل عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس وماردة، وموسى بن موسى في سرقسطة، وعمر بن حفصون بين رندة غرباً ومالقة شرقاً.

ولا يمكن إغفال دور الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وخاصة مملكة استورقة، في التحريض على ضرب الوحدة السياسية للمسلمين وتشجيع التقاتل في ما بينهم(2).

---

(1) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 147.
(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، ص 41.

وتبقى ثورة عمر بن حفصون[1] التي اندلعت سنة 267هـ/ 880م، أخطر الحركات الانفصالية في الامارة الأموية، بعدما استمرت طيلة ست وثلاثين سنة، بدأت أواخر حكم الأمير محمد، لتستمر مع حكم ولديه الأميرين المنذر وعبد الله، ثم حفيد هذا الأخير الأمير عبد الرحمن الثالث الذي تولى الامارة سنة 300هـ/ 912م، ليقضي على هذه الثورة سنة 303هـ/ 915م، ويوحد الأندلس قبل أن يعلن الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ/ 929م.

---

(1) للمزيد عن ثورة عمر بن حفصون، أنظر:

ابن عذارى: البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 175، 186، 201.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، ص 23، 28.

مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 150.

عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 150، 151، 153، 158، 159.

الفصل الخامس

عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»
واعلان الخلافة الأموية
(91 ـ 350هـ/ 710 ـ 961م)

1 ـ الأندلس عهد عبد الرحمن الثالث قبل اعلانه الخلافة
(300 ـ 316هـ/ 912 ـ 929م)

2 ـ اعلان الخلافة الأموية في الأندلس
(الجمعة 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929 م)

3 ـ سياسته الداخلية

(أ) بناء مدينة الزهراء (325 ـ 336هـ/ 937 ـ 947م)

(ب) ازدهار العاصمة قرطبة

(جـ) بناء القصور واقامة التماثيل

(د) النهضة العلمية والأدبية

(هـ) الاكثار من استخدام خصيان الصقالبة في الادارة والجيش.

4 ـ سياسته الخارجية

(أ) العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة والقسطنطينية (338هـ/ 949م)

(ب) الصراع البحري مع الخلافة الفاطمية في المغرب (344هـ/ 955م)

تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد، إمارة الأندلس، بعد وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني سنة 300هـ/ 912م، علماً أن عبد الرحمن الأول «الداخل» هو مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس. وتعلقت الآمال بالأمير الشاب عبد الرحمن بن محمد الذي حمل لقب «الثالث» وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين[1]، فإذا به يتحول سريعاً إلى المؤسس الثاني للدولة الأموية في الأندلس، بعد أن قضى على الفتن والثورات وفي مقدمها ثورة عمر بن حفصون سنة 303هـ/ 915م، وأعاد الوحدة السياسية للإمارة التي ما لبثت أن تحولت على يديه إلى خلافة أموية عاصمتها قرطبة، سنة 316هـ/ 929م، ليلقب نفسه بـ «الناصر لدين الله»، وشهدت هذه الخلافة عصرها الذهبي حتى وفاته سنة 350هـ/ 961م.

ومثل هذه الشخصية التي تحولت معها الأندلس من إمارة أموية إلى خلافة أموية، أفرد لها جرجي زيدان رواية من روايات تاريخ الإسلام، تحمل اسمه أي «عبد الرحمن الناصر»[2].

1 ـ الأندلس عهد عبد الرحمن الثالث قبل إعلانه الخلافة (300 ـ 316هـ/ 912 ـ 929م)

ما إن تولى الأمير عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس سنة 300هـ/ 912م،

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 158.

(2) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ).

حتى بادر إلى اجتذاب العديد من زعماء الدويلات المستقلة، مثل بني حجاج في إشبيلية وقرمونه سنة 301هـ/ 913م[1]، ليتفرغ لمواجهة عمر بن حفصون والقضاء على ثورته سنة 303هـ/ 915م. ومع ذلك فإن الثورة لم تنته فعلياً إلا سنة 315هـ/ 927م، لأنه رغم وفاة عمر بن حفصون سنة 306هـ/ 918م[2]، فقد استمر أولاده جعفر وسليمان وحفص في التمرد، حتى تمكن الأمير عبد الرحمن الثالث من قتل الأول سنة 308هـ/ 920م، والثاني سنة 314هـ/ 926م[3]، واستسلم الثالث سنة 315هـ/ 927م، لتعود قلعة ببشتر إلى سلطة الإمارة الأموية في قرطبة[4]. وهذا ما شجع الأمير عبد الرحمن الثالث على إعلان الخلافة الأموية، رغم استمرار تمرد بطليوس وباجه اللتين تفرغ لهما مباشرة بعد تحول الإمارة إلى خلافة سنة 316هـ/ 929م، فدخلهما سنة 317هـ/ 929م[5]، وتوحدت الأندلس.

وتمثل الخطر الحقيقي، زمن عبد الرحمن الثالث، بالممالك المسيحية الثلاث شمال الأندلس، وهي ليون وقشتالة ونافار. فقد شن أردونيو الثاني ملك ليون هجوماً على غرب الأندلس، ودمر مدينة يابرة[6] سنة 301هـ/ 913م، رغم البطولة التي أظهرتها الحامية وهي تقاتل حتى آخر فرد منها، كما قتل حاكم المدينة مروان بن عبد الملك وعدد كبير من سكانها. وفي سنة 305هـ/ 917م، شن هجوماً جديداً على مدينة ماردة واستولى عليها، بعد أن أنزل القشتاليون الهزيمة بجيش المسلمين في معركة قرب شنت اشتبن واستشهد قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة[7].

---

(1) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 20.
Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 41.
(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص 32.
(3) المصدر نفسه، ص 33.
(4) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، ص 153، 154.
(5) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 199.
(6) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 197.
(7) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1، ص 255.

شعر الأمير عبد الرحمن الثالث، بخطر مملكة ليون على غرب الأندلس، عندما حاولت مهاجمة سرقسطة، وهي قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين. فقاد بنفسه حملة عسكرية كبيرة إليها سنة 308هـ/ 920م، واتجه إلى جليقية ونبرة (نافار)، فهدم حصن قاشتروموريش وما جاروه من حصون، وأنزل الهزيمة الساحقة بجيش تحالف مملكتي ليون ونافار[1]، واستعاد العديد من المواقع مثل: أوسما Osma وتطيلة Tudela وكاركاسو Carcaso[2].

وتمادى شانجه الأول ملك نافار، سنة 311هـ/ 923م، عندما استولى على حصن بقيرة Viguera المتاخم لحدود مملكته، وحمل الحامية والأسرى إلى عاصمته بنبلونة، ثم قتلهم جميعاً في مذبحة رهيبة هزت قرطبة عاصمة الإمارة الأموية في الأندلس. لذلك، قاد الأمير عبد الرحمن الثالث بنفسه، حملة عسكرية سنة 312 هـ/ 924م، لتأديب ملك نافار في عقر داره، ثم عاد إلى قرطبة تاركاً وراءه التخريب والدمار.

وكان انتصار الأمير عبد الرحمن الثالث على الممالك المسيحية خارج حدود الأندلس، شمالاً، إضافة إلى قضائه على الثورات داخل الأندلس، وبخاصة ثورة عمر بن حفصون، أحد الدوافع الرئيسية التي شجعته على إعلان الخلافة الأموية في الأندلس.

2 ـ إعلان الخلافة الأموية في الأندلس
(الجمعة 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م)

لم يتطرق جرجي زيدان إلى ظروف إعلان الخلافة الأموية في الأندلس، وإن كانت روايته «عبد الرحمن الناصر»، تتحدث عن بعض الأحداث في فترة محددة من تلك الخلافة.

فقد أعلن الأمير عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين في يوم الجمعة 2

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 363.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 179، 180.

ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م، وأصبح لقبه «أمير المؤمنين الناصر لدين الله»[1].

برهن الأمير عبد الرحمن الثالث، عن حنكة سياسة داخل إمارة الأندلس، وهو يدرك مدى الضعف الذي وصلت إليه الإمارة على يد الأمراء الأمويين الثلاثة قبله، نتيجة الثورات التي أدت إلى قيام دويلات مستقلة، فنجح في إعادة توحيدها بالقوة حيناً وباللين أحياناً. وفي نفس الوقت، أعاد الاعتبار لمكانة الإمارة خارج حدودها بانتصاره على الممالك المسيحية. ثم استجاب لرغبة أهل الأندلس في أن يكون خليفة، مما يرفع من مكانته على رأس الحكم داخل قرطبة، بما للخلافة من تأثير ديني في نفوس المسلمين.

وبذلك تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة أموية سنة 316هـ/ 929م، وتمكن الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» من توطيد مكانة الأندلس في الداخل والخارج، منافساً الخلافة العباسية التي تسيطر على شرق العالم الإسلامي منذ سنة 132هـ/ 750م، والخلافة الفاطمية في المغرب المعروفة بعداواتها للعباسيين والأمويين معاً. وهذا الواقع، يشكل قضية تستحق البحث والتحليل، لأنها تطرح مشكلة وجود ثلاثة خلفاء في الوقت عينه في العالم الإسلامي، بينما الحكم الإسلامي لا يتطلب إلاّ خليفة واحداً مهما اتسعت رقعة العالم الإسلامي.

3 ـ سياسته الداخلية

(أ) بناء مدينة الزهراء (325 ـ 336هـ/ 937 ـ 947م)

أدرك عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، بعد إعلانه الخلافة الأموية في الأندلس في 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م، ضرورة إنشاء مدينة جديدة تكون داراً للخلافة الجديدة فتزيدها أبهة وفخامة. لكنه لم يباشر بناء هذه المدينة

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 353.
ابن الآبار: الحلة السيراء، ج 1، ص 198.

إلا في محرم 325هـ/ تشرين الثاني 936م، أي بعد تسع سنوات قضاها في توطيد مركزه الداخلي والخارجي.

أوكل الناصر لدين الله إلى ابنه وولي عهده الحكم الثاني «المستنصر»، مهمة الإشراف على بناء مدينة الزهراء، يعاونه المهندس مسلمة بن عبد الله، وعريف البنائين عبد الله بن يونس. وشارك في البناء عشرة آلاف عامل وحرفي[1]، مع ألف وخمسمائة دابة، وهم يعملون يومياً طيلة عشر سنوات، قبل أن ينتقل إليها الناصر لدين الله ومعه أفراد عائلته ورجال الحاشية والجيش، إضافة إلى بيت المال، وذلك سنة 336هـ/ 947م.

وقيل أن الناصر لدين الله، بني مدينة الزهراء تكريماً لذكرى جارية له تحمل هذا الاسم. لكن الوقائع، تشير إلى أنه أراد بناء مدينة تخلد اسمه هو، وتكون خاصة به وبأسرته الأموية وأفراد الحاشية ورجال الجيش، أما اسم «الزهراء»، فلعله نسبة للقصور الزاهرة التي أنشأها الناصر لدين الله في هذه المدينة، أو بسبب غرسه للقسم الأوسط من المدينة بأشجار اللوز والتين التي تتفتح زمن الأزهار.

وعندما «بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة... إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً»[2].

كانت مدينة الزهراء تحتل مساحة مليون ومائة وخمسة وعشرين ألف متر مربع، وهي عبارة عن مستطيل طوله ألف وخمسمائة متر وعرضه سبعمائة وخمسون متراً، وتقع عند سفح جبل العروس من جبال (سيرامورنيا) أو الجبال السوداء، على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبة. وقد جعلها هذا السفح الجبلي، بشكل مدينة ثلاثية مدرجة، لكل قسم منها سور وأبواب. فشيدت قصور الخلافة والحاشية في المدرج العلوي، والبساتين في المدرج الأوسط، بينما شيد

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص 26.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 108 ـ 110.

المسجد ومنازل الحرس في المدرج السفلي[1].

وجلب الماء العذب إلى مدينة الزهراء سنة 329هـ/ 930م، بعد أن أكمل بناء قناة تمتد ثمانين كيلو متراً من أعلى الجبل، حيث يجري الماء بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد بديع الصفة، مطلي بذهب ابريز، وعيناه جوهرتان وما يفيض من الماء يصب في نهر الوادي الكبير[2].

وكان قصر الخليفة داخل مدينة الزهراء، يشتمل على عدة مجالس، اشهرها المجلس الشرقي «المؤنس» وهو الذي وصفه جرجي في المقدمة التاريخية لرواية «عبد الرحمن الناصر» أما المجلس الثاني فهو قصر الخلافة، وينفتح من جوانبه ثمانية أبواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر، قامت على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافي. ومصاريع أبواب القصر، لبست كلها بالحديد والنحاس المموه. وكان للقصر حمام وللعامة حمام[3].

(ب) ازدهار العاصمة قرطبة

لم تتمكن مدينة الزهراء، من التحول إلى عاصمة جديدة للخلافة الأموية في الأندلس. فقد استمرت العاصمة قرطبة في تألقها وازدهارها، منذ أن حولها عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» إلى حاضرة خلافته سنة 316هـ/ 929م.

لقد اتسعت مساحة قرطبة، زمن الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، وهي تتجاوز نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير، وشرقاً في ما وراء باب عبد الجبار الذي يعتبر أحد أشهر أبواب قرطبة السبعة[4]، ويقع مع الباب الجديد في السور الشرقي، ويطلق عليه أيضاً اسم باب طليطلة وباب

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 312.

(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 100 ــ 101.

(3) عصام شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود، ص 175.

(4) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 13.

ابن غالب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ص 27.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 59.

رومية. أما الباب الثالث فهو باب طلبيرة أو باب ليون في اسور الشمالي، والرابع هو باب القنطرة أو باب الوادي الكبير عند السور الجنوبي، فضلاً عن ثلاثة أبواب في السور الغربي، هي: باب عامر القرشي، باب الجوز أو باب بطليوس، وباب إشبيلية أو باب العطارين.

أما الجسر، أي قنطرة قرطبة، فتصل بين روضة قرطبة وربضها شقندة. وهي تعود إلى زمن الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر، وكانت مهدمة عند الفتح العربي الإسلامي، فجرى ترميمها عدة مرات[1]، وأصلها عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، الذي بلغت قرطبة، في عهده، أزهى عصورها. فقد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة، وكانت أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان، فيها 213077 داراً للعامة و 6300 دار للوزراء والكتاب والأجناد، و 8555 حانوتاً، و 700 حمام، و 3877 مسجداً وقيل 1836 مسجداً[2]. وأصبحت «قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن، وقرار الخلافة ودار الملك، تجبى إليها ثمرات كل جهة، وخيرات كل ناحية»[3].

(جـ) بناء القصور وإقامة التماثيل

انتقد جرجي زيدان بلسان أحد المعارضين الخليفة عبد الرحمن الناصر، على «أنه ينفق الأموال في بناء القصور وإقامة التماثيل، ويصنع حجارة البناء من ذهب، وقد نهى الله عن ذلك، إن الذين فعلوا هذا قبله أضاعوا الدولة والمملكة، فتبصروا في أمركم»[4].

وحتى يبدو الانتقاد شديداً، استعان جرجي زيدان بأحد الفقهاء ليؤكد تحريم إقامة التماثيل داخل قصور الخلافة. فبعد أن أشار الفقيه محمد بن عبد البر الكيبساني إلى القصر الزاهر، وما فيه من أحواض «عليها تماثيل من الرخام أو الفضة على

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2، ص 316، 320.
(2) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 2، ص 78، 79.
(3) ابن غالب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ص 26، 27.
(4) جرجي زيدان، عبد الرحمن الناصر، ص 22.

أشكال مختلفة، يجري ماؤها من أنابيب بعضها كأفواه الحيوانات، وأكثرها من الرخام، وبعضها من الفضة، وبعضها الآخر من الذهب يتلألأ عن بعد في أشعة الشمس، وبعض الأحواض عليها التماثيل من النحاس المموه على أشكال جميلة»[1]، يقول له سعيد الوراق: «لا يدهشني ما أنفق من الأموال أكثر مما يدهشني اتخاذه تلك التماثيل... فهل أفتيتم له باتخاذها وهي محرمة على ما أعلم؟»[2].

وهنا هز الفقيه محمد بن عبد الله رأسه، وقال: «من أفتى له؟ إنه أفتى لنفسه؟[3]. وهذا يعني، أن مؤلف رواية «عبد الرحمن الناصر» يميل إلى أن بطل روايته الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» أفتى لنفسه بأقامة التماثيل داخل قصوره، مع تحريم ذلك في الاسلام.

وفي موضع آخر، يتساءل جرجي زيدان، بلسان سعيد الوراق: «أعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنون التماثيل، كما قال: «وهل يجوز في الإسلام اقتناء التماثيل؟»، ثم يجيب بلسان ياسر، قائلاً: «ذلك ما نقمه بعضهم على أمير المؤمنين (يقصد عبد الرحمن الناصر)، ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم (يقصد الإمبراطور البيزنطي)، وهو لا يرى ضرراً من اقتنائه»[4].

صحيح، أن الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر» حصل على هذا الحوض وما عليه من تماثيل الآدميين هدية من الإمبراطور البيزنطي، لكن التماثيل الذهبية الأخرى التي وضعت فوق الحوض صنعت داخل العاصمة قرطبة، وهي مرصعة بالدر الغالي النفيس[5]. وهي عبارة عن إثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مفرقة على جوانب الحوض.

مما لا شك فيه، أن المسلمين، لم يقيموا التماثيل أو يصنعوا حجارة البناء

---

(1) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر، ص 30، 31.
(2) المرجع نفسه، ص 31.
(3) المرجع نفسه، ص 31.
(4) المرجع نفسه، ص 93.
(5) المرجع نفسه، ص 94.

من ذهب، منذ الدعوة وفتح مكة المكرمة في 10 رمضان 8هـ/ 629م، عندما أمر النبي محمد (ﷺ) بإزالة الصور وهبل من داخل الكعبة وتطهيرها من الأصنام المشدودة إلى جدرانها من الخارج. كما أرسل السرايا لتحطيم الأصنام، فسار خالد بن الوليد لهدم «العزّى»[1]، وعمرو بن العاص لهدم «سواع»، وسعد بن زيد الأشهلي لهدم «مناة»[2].

لذلك، عاش الخلفاء الراشدون الأربعة، في صدر الإسلام، في بساطة عيش، والابتعاد عن الأبهة والعظمة، فنفروا من حياة ملوك كسرى أو قياصرة «الروم» البيزنطيين الذين هزموا أمامهم. لتبدأ مثل هذه الأبهة مع معاوية بن أبي سفيان منذ أن كان والياً على الشام، ولتزداد مع تأسيسه الخلافة الأموية في دمشق، حتى وصلت إلى ما وصلت عليه، مع عبد الرحمن الثالث «الناصر» مؤسس الخلافة الأموية في قرطبة.

ولكن ذلك، لا يعني أن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» ابتعد عن الإسلام، ويقوم بما نهى الله عنه، فقد أقام لمدينة الزهراء مسجداً، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً. وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمري اللون، تتوسطه فوارة يجري فيها الماء، وارتفاع المئذنة أربعين ذراعاً. كما أدرك أن مئذنة جامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الأول «الداخل» قد تصدعت من جهة، وأصبحت صغيرة الحجم (ارتفاعها أربعون ذراعاً) بالنسبة لجامع فسيح المساحة، ولا تليق بأبهة الخلافة الأموية في الأندلس من جهة أخرى. لذلك أمر، سنة 340هـ/ 951م[3]، ببناء مئذنة جديدة بلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن، ومن هذا المكان إلى أعلاها عشرين ذراعاً تنتهي بسفود بارز، وكتب فيه ثلاث تفاحات، اثنتان

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، بيروت طبعة ثالثة 1971، جـ 2، ص 437.

(2) عصام شبارو: الدولة العربية الإسلامية الأولى (1 ـ 41هـ/ 623 ـ 661م)، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة ثالثة 1995، ص 189.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص 38.

من الذهب والوسطى من الفضة[1]. ثم قام الناصر لدين الله بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن، في ذي الحجة 346هـ/ آذار 958م، وذلك على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر[2].

إنها طبيعة الأندلس، فحكم تلك البلاد التي تمثل البوابة الغربية للقارة الأوروبية، لا يمكن إلا وأن يتناغم مع فخامة قصور أوروبا. وتبادل السفارات مع الدولة البيزنطية، وما رافقه من تبادل للهدايا، بما فيها التماثيل، تحث مثل هذا الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر»، على صنع تماثيل تفوقها جمالاً وقيمة، حتى أنه لم يتورع عن استخدام الذهب في صنعها، إظهاراً لمدى أهمية الخلافة إذا ما قارنها أحد مع عظمة قصور الدولة البيزنطية أو الممالك الأوروبية الأخرى. وإن كانت مثل هذه الأمور، لم تكن أبداً من مبادىء الدعوة الإسلامية، وابتعد عنها الخلفاء الراشدون، وحتى خلفاء بني أمية في دمشق، رغم تفننهم في بناء القصور وتعلقهم بالأبهة والعظمة، إلا أنهم ابتعدوا عن إدخال التماثيل الآدمية أو الحيوانية إلى قصورهم.

(د) النهضة العلمية والأدبية

ازدادت قرطبة عاصمة الأندلس تألقاً في عهد عبد الرحمن الثالث «الناصر»، وتحولت معه إلى مركز حضاري فريد من نوعه عمرانياً وعلمياً وأدبياً وفنياً. فقد تمكنت من منافسة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وكأن قرطبة وبغداد تقاسمتا حضارياً العالم الإسلامي المترامي الأطراف، من البوابة الغربية لأوروبا إلى حدود الصين شرقاً.

اشتهرت «مكتبة قرطبة»[3]، مما يعني أن عبد الرحمن الثالث أولى اهتماماً

---

(1) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 10، 11.
ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 1، ص 344.
الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 155.

(2) Lévi – Provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane, T 1, P 3.

(3) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر، ص 11.

خاصاً للنهضة العلمية والأدبية التي عرفتها قرطبة عهده.

وكان «يتردد على هذه المكتبة الكثير من الأدباء ومحبي المطالعة، وقرطبة يومئذ في أوج مجدها، واقتناء الكتب فيها من لوازم الحياة وضرورات الحضارة، كالأثاث لا يستغني عنها في بيت من البيوت، لأن الخليفة نفسه كان محباً للعلم مقرباً للعلماء، وقد شبّ أولاده على ذلك، ولا سيما الحكم ولي العهد وأخاه عبد الله، واقتدى بهم سائر أهل الدولة، والناس على دين ملوكهم. فأصبحت تجارة الكتب من أروج التجارات، فكثر الوراقون الذي يشتغلون ببيع الكتب ونسخها»[1].

وقد أنشأت مكتبة قرطبة في الربض خارج العاصمة، في بيت على ضفة الوادي الكبير، فهي تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر. وهي «أشبه بنادي مطالعة منها بمستودع كتب أو دار نسخ، فكان أدباء قرطبة يتوافدون إليها للمطالعة والشراء أو النسخ»[2].

وكذلك، كان ولي العهد الحكم بن عبد الرحمن يملك مكتبة خاصة به، وأمين هذه المكتبة هو «تليد»[3]، وهو مستعد لدفع المبالغ الكبيرة للحصول على أي كتاب هام فور نسخه. وكان الأمير عبد الله ينافس أخاه الحكم في اقتناء الكتب، فإذا سبق أحدهما إلى اقتناء كتاب جديد عد ذلك فخراً له[4].

ففي ذلك العهد، كان اقتناء كتب الفلسفة أو الطبيعيات أو نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية، يعد زندقة، وكان الأمير عبد الله مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد، وكان ينكر على أخيه الحكم اقتناءها.

والواقع، لم يكن للفلسفة وجود فعلي في الأندلس، إلا بعد انقضاء عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، أي مع بروز ابن باجة وابن رشد وابن

---

(1) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 12.

(3) المرجع نفسه، ص 15.

(4) المرجع نفسه، ص 16.

الطفيل. أما في عهد عبد الرحمن الثالث، فقد كان العلماء والفقهاء يحرمون الخوض في تلك المسائل اقتداء بالدولة العباسية التي كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر في أوائل عصرها. كذلك، كان قراء الفلسفة، قلة في هذا العهد، فأخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات[1].

ومن هؤلاء الفلاسفة القلة، لمع الفيسوف محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (269 ـ 319هـ/ 882 ـ 931م)، وهو الذي أحرقت كتبه خارج باب جامع قرطبة، بأمر الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل الملحدين[2].

وفي الطب، برز حسداي بن شبروط اليهودي، الذي أرسله الناصر لدين الله إلى سانشو لتهذيب قوامه، لأنه كان مفرط السمنة، وذلك قبل أن يعيده إلى عرش مملكة ليون سنة 349هـ/ 960م.

ويذكر اسم طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر» نفسه، وهو الطبيب سليمان بن تاج، وكذلك أحمد بن جابر طبيب ولي العهد الحكم[3].

ومن علماء المشرق العربي الإسلامي، الذين وفدوا قرطبة سنة 330هـ/ 941م، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي، صاحب كتاب الأمالي، فأمر الناصر لدين الله ابنه الحكم الثاني «المستنصر» باستقباله حتى اختص به[4]. فلا غرو أن تصل الحركة الأدبية ذروتها في عهد الخليفة الحكم الثاني «المستنصر»، لأن قدوم القالي إلى قرطبة، يمثل بحد ذاته نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية، ولم يكن لدى الأندلسيين قبله إلا ابن القوطية وثابت وابنه القاسم والزبيدي[5].

---

(1) جرجي زيدان، عبد الرحمن الناصر، ص 70.

(2) Lévi – Provençal: Histoire de l’Espagne Musulmane, T 3, P. 486.

(3) جرجي زيدان: المرجع السابق، ص 71.

(4) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، ج 4، ص 146.
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1، ص 362.

(5) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 313، 314.

(هـ) الإكثار من استخدام خصيان الصقالبة في الإدارة والجيش

ارتكب عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» خطأً فادحاً باعتماده على الصقالبة في الإدارة والجيش، بهدف الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية في الحكم، وإضعاف سيطرة العرب والبربر داخل الجيش.

وأصل الصقالبة من الشعوب السلافية الذين سكنوا البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتيكي غرباً. وكان الجرمان يغزون هذه البلاد ويسبون الأطفال والرجال والنساء، ثم يبيعونهم في الأندلس، فأطلق العرب على هؤلاء العبيد أو الرقيق اسم «الصقالبة» نسبة إلى «السلاف». وقيل أيضاً أن تسمية «صقلبي» جاءت من الكلمة الفرنسية Esclave بمعنى عبد أو رقيق.

بدأ استخدام الصقالبة في الأندلس، منذ عهد الأمير الحكم الربضي (180 ـ 206هـ/ 796 ـ 822م)، ولكن بشكل محدود، لم يؤثر أبداً على العصبية العربية ونفوذها في الإدارة والجيش. وأخذ عددهم يزداد، حتى بلغ عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» حوالى 3750 رجلاً و 6350 إمرأة[1]، مما يعني وجود طبقة جديدة «غير عربية» في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس على غرار طبقة الأتراك «غير العرب» في بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

4 ـ سياسته الخارجية

(أ) العلاقات الدبلوماسية بين قرطبة والقسطنطينية (338هـ/ 494م)

تبادل الناصر لدين الله، السفارات والهدايا، مع امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع (334 ـ 348هـ/ 945 ـ 959م)، الذي كان يهدف إلى استعادة صقلية من أيدي الفاطميين[2].

فقد وفدت السفارة البيزنطية في صفر 338هـ/ آب 949م، ونزلت في أحد

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص 40.

(2) Reinhart Dozy: Histoire des Musulmans d’Espagne, T2, P. 159.

قصور قرطبة، في احتفال كبير[1]. والتقى الناصر لدين الله هذه السفارة في قصر الزهراء[2]، وقيل في بهو المجلس الزاهر[3]، وهو أروع قاعات قصر الخلافة بقرطبة، وذلك في يوم السبت 11 ربيع الأول 338هـ/ 8 أيلول 949م، أي بعد شهر من قدومها.

كانت هدية قسطنطين السابع إلى الناصر لدين الله، عبارة عن كتابين نفيسين، أحدهما كتاب ديسقوريدس في علم النبات، والثاني هروسيس في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين[4]، مع كتاب الإمبراطور المصبوغ بلون سماوي والمكتوب بالذهب.

وعندما عادت السفارة البيزنطية إلى القسطنطينية، بعث الناصر لدين الله معها ممثله هشام بن هذيل حاملاً هدية إلى الامبراطور قسطنطين السابع[5].

فعلى الرغم من العداوة بين الأندلس والممالك المسيحية التي نشأت عند حدودها الشمالية، فإن عبد الرحمن الثالث عرف كيف يستغل حالة السلم لينفتح على مملكتي ليون ونافار في علاقات دبلوماسية، وإن كانت لا ترقى إلى مستوى علاقته بالدولة البيزنطية أو بالامبراطورية الرومانية المقدسة، لأن الوضع بين الأندلس والممالك المسيحية المجاورة، قابل للانفجار العسكري في أي وقت.

فقد تبادل الناصر لدين الله السفارات والهدايا مع امبراطور الدولة الرومانية المقديسة أوتو الأول «الكبير» (324 ـ 362هـ/ 936 ـ 973م). وكان الدافع الرئيسي لهذا التبادل، الغارات البحرية التي كان يقوم بها المجاهدون الأندلسيون على سواحل الفرنجة. فبعث أوتو الأول إلى قرطبة سنة 344هـ/ 956م[6] الراهب جان

---

(1) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1، ص 364.

ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص 37.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 313، 315.

(3) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر، ص 33.

(4) جرجي زيدان: عبد الرحمن الناصر، ص 37.

(5) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1، ص 365.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، ص 234.

دي غورز، وهو من دير غورز Gorze القريب من مدينة متز Metz، واستقبله الناصر في احتفال كبير ليتلقى منه الهدية[1].

ومما يدل على عظمة الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، ومدى احترام الممالك المسيحية له، أن أردونيو الرابع حينما زار الأندلس مطلع عهد الخليفة الحكم الثاني «المستنصر»، سأل عن قبر «الناصر لدين الله»، وتوجه إليه حيث ركع في خشوع احتراماً لذكراه[2].

(ب) الصراع البحري مع الخلافة الفاطمية في المغرب (344هـ/ 955م)

قامت الخلافة الفاطمية في المغرب سنة 297هـ/ 909م، أي قبل ثلاث سنوات من تولي الأمير عبد الرحمن الثالث إمارة الأندلس. وكان الهدف الرئيسي لها أول الأمر، هو غزو إمارة الأندلس، لجعل المغرب الإسلامي كله خاضعاً لها، بذلك ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين، أحدهما شرقي تابع للخلافة العباسية «السنيّة»، والآخر غربي تابع للخلافة الفاطمية «الشيعية». وذلك تمهيداً لانقضاض الفاطميين في مرحلة ثانية على الخلافة العباسية في بغداد[3].

وزاد خوف الخلافة الفاطمية «الشيعية» مع إعلان عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية «السنيّة» في الأندلس في 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م، لأن قيام خلافتين متجاورتين، على أسس مذهبية مختلفة، يعرقل خطة الفاطميين في غزو الأندلس، ويعني الصدام المسلح بينهما.

لم يتح عبد الرحمن الثالث الفرصة أمام الفاطميين لغزو بلاده، وهو يدرك تماماً قوة الأسطول البحري الفاطمي في المغرب وصقلية في البحر المتوسط. لذلك أنشأ أسطولاً بحرياً أندلسياً من مائتي مركب[4]، وعمل على تحصين الثغور الأندلسية

---

(1) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، جـ 4، ص 143.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، جـ 1، ص 312.

(2) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 209.

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 1، ص 348.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص 278.

الجنوبية المواجهة للمغرب، منذ أن تولى الإمارة.

وتطور النزاع بين الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في المغرب، إلى الصدام البحري بينهما. وكان السبب المباشر لهذا الصدام، سنة 344هـ/ 955م، عندما أنشأ الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» مركباً كبيراً تمكن من اعتراض مركب صغير، وأخذ الرسائل التي بعث بها الحسن بن علي الوالي الفاطمي في جزيرة صقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في المهدية. ولعل هذه الرسائل تتعلق بمشروع غزو فاطمي على الأندلس، لذلك لم يتردد قائد المركب الأندلسي الكبير من الاستيلاء عليها[1]. وعلى الفور أرسل الخليفة الفاطمي والي صقلية على رأس أسطول كبير، دخل مرسى المرية في الأندلس[2]، وأحرق جميع ما فيه من مراكب، واستولى على ذلك المركب الكبير الذي كان عائداً من الاسكندرية وفيه أمتعة للخليفة الأموي وجوار ومغنيات، ثم عاد الأسطول الفاطمي إلى المهدية.

ولعل «الزهراء»، كانت على متن المركب الذي اعترضه المركب الكبير الذي أنشأه الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، فاختطفت، لتتحول إلى محظية الخليفة.

وقد انتهى الصراع البحري بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في المغرب، بتوجه الخلافة الفاطمية نحو مصر وفتحها سنة 358هـ/ 369م، أي بعد ثماني سنوات على وفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله».

وهكذا ارتبطت الخلافة الأموية في الأندلس، عملياً، باسم عبد الرحمن الثالث الذي أعلن الخلافة الأموية في الأندلس وعاصمتها قرطبة سنة 316هـ/ 929م، ليلقب نفسه بـــ «الناصر لدين الله». وقد استمرت الخلافة من بعده بصورة شكلية مع ثمانية خلفاء[3] لم يحملوا منها إلا اسمها طيلة اثنتين وسبعين سنة هجرية/ سبعين

---

(1) Reinhart dozy: Histoire des Musulmans d’Espagne, T2, P. 165

(2) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص 38.

(3) راجع الملحق رقم 3 وفيه أسماء الخلفاء الثمانية.

سنة ميلادية (350 ـ 423هـ/ 961 ـ 1031م)، انتهت بسقوطها وسقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة 422هـ/ 1031م.

وإذا كان عبد الرحمن الأول «الداخل»، هو مؤسس الإمارة في الأندلس، فإن عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، هو المؤسس الثاني لهذه الدولة الأموية التي تحولت معه إلى خلافة أموية، لتغدو العاصمة قرطبة مركزاً حضارياً فريداً من نوعه عمرانياً وعلمياً وأدبياً وفنياً، نافس بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

ولكن ما يؤخذ على سياسة عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، كما أشار معظم المؤرخين، إكثاره من استخدام خصيان الصقالبة في الإدارة والجيش، بهدف إضعاف العصبية العربية. وهذا الخطأ التاريخي، وقع فيه العباسيون والفاطميون، حتى آلت القوة العسكرية بأيدي طبقة جديدة غير عربية، هي تركية في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وصقلبية في قرطبة عاصمة الأندلس. دون إغفال قيام الدويلات غير العربية سواء في المشرق العربي الإسلامي أو في المغرب العربي الإسلامي والأندلس. وهذا الاعتماد على العنصر غير العربي، هو الذي عجل بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة 422هـ/ 1031م.



الخاتمة

أنجزت إحدى أضخم عمليات الفتح العربي الإسلامي، في مدة لم تتجاوز الست سنوات (91 ــ 97هــ/ 710 ــ 716م) جرى خلالها فتح الأندلس، في حين استغرق فتح المغرب قبلها مباشرة، زهاء سبعين سنة هجرية/ ثماني وستين سنة ميلادية (21 ــ 90هــ/ 642 ــ 709م) فكان من أصعب الجبهات التي استغرق فتحها زمناً طويلاً، عكس جبهة الأندلس، استطاع خلالها موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرفعا راية الحكم العربي الإسلامي في البوابة الغربية للقارة الأوروبية. ويشير ابن خلدون إلى أن فكرة التوغل في أوروبا وتطويق الدولة البيزنطية، داعبت خيال القائد موسى بن نصير، ولكن ذلك يبقى في إطار الاستنتاج، علماً أن القائد عبد الرحمن الغافقي، حاول تحقيق تلك الفكرة، لكنه لم ينجح منذ البداية.

ومن خلال النقد والمقارنة التاريخية، اتضحت معالم الفتح العربي الإسلامي للأندلس، على يد القائد العربي موسى بن نصير والقائد البربري طارق بن زياد، حتى تحول هذا الفتح إلى ما يشبه الأسطورة، لا تقل عنها صورة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي الذي لو لم يهزم في موقعه «بلاط الشهداء» أو «بواتيه» سنة 114هــ/ 732م، لفتح قارة أوروبا بأسرها عقب سقوط فرنسا بعد إسبانيا. ولكن قيام الإمارة الأموية في الأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية في الفترة (138 ــ 316هــ/ 756 ــ 929م)، ثم الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة في الفترة (316 ــ 422هــ/ 929 ــ 1031م)، لم يمنع أبداً أن تعيش الأندلس في شبه عزلة عن سائر

دول القارة الأوروبية، لتبقى ممثلة لأقصى الطرف الغربي من العالم الإسلامي، قبل أن تبدأ الممالك المسيحية حرب الاسترداد، وتسيطر على الأندلس بأسرها، باستثناء غرناطة، سنة 642هـ/ 1244م.

استبد البربر والصقالبة مع ضعف الخلافة الأموية في قرطبة، كما استبد الفرس والأتراك مع ضعف الخلافة العباسية في بغداد. فلا غرو أن تحرص الدويلات المستقلة التي قامت في المغرب والأندلس على أيدي عناصر غير عربية في معظمها، على إعلان استقلالها التام سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية. فرغم ما شهدته الأندلس من معالم الحضارة العربية الإسلامية، منذ إعلان الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين في يوم الجمعة 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م، ولقبه «الناصر بدين الله»، إلا أن هذا الخليفة ارتكب خطأ فادحاً بإضعافه العصبية العربية في الجيش والإدارة، فأخذ يعتمد على الصقالبة بهدف الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية، فظهرت طبقة جديدة «غير عربية» في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس، على غرار طبقة الأتراك «غير العرب» في بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وأخذت هذه العصبية العربية تضعف وتتراجع أمام قوة الصقالبة حتى أوشكت على التلاشي، مع الفتن والحروب الأهلية، فسقطت الخلافة الأموية في قرطبة سنة 422هـ/ 1031م، وبدأ عصر الدويلات الصغيرة التي أسس بعضها البربر والصقالبة، إلى جانب العرب والموالي والمستعربين، وقد تقاسموا الأندلس في ما بينهم، في ثلاث وعشرين دويلة متنازعة، سميت دويلات الطوائف، وعرف حكامها بملوك الطوائف (422 ـ 478هـ/ 1031 ـ 1085م). وهذا الواقع التقسيمي، يعني عملياً ضياع الأندلس وسقوطها للمرة الأولى. وقد اتخذ العديد من ملوك الطوائف، ألقاب الخلافة وهم يقلدون الخلفاء العباسيين في بغداد والخلفاء الفاطميين في القاهرة.

واستمر التناحر حول السلطة والنفوذ في الأندلس، والممالك المسيحية تتابع حرب الاسترداد، مغتنمة الضعف والانقسام، وهي تسترد المدن والممالك واحدة بعد واحدة، حتى انحصر ملك المسلمين داخل رقعة صغيرة في جنوب شرق الأندلس،

هي غرناطة التي قاومت السقوط وحدها طيلة قرنين ونصف القرن، حتى سقطت بدورها يوم الاثنين أول ربيع الأول 897هـ/ 2 كانون الثاني 1492م، وسقطت معها الأندلس، لتضيع نهائياً.

وما فعله عبد الرحمن الثالث الذي توج عهده الطويل (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م) باعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ/ 929م، يؤكد أن الخلافة الأموية لم تسقط مع سقوطها في دمشق سنة 132هـ/ 750م، لأنها استمرت في الأندلس في أقصى غرب العالم الإسلامي وأصبحت عاصمتها قرطبة، لتعاصر الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد، ولتعاصرهما معاً خلافة فاطمية في القاهرة، تنتظر الفرصة للإطاحة بكل منهما.

حينما سقطت الخلافة الأموية في دمشق على يد العباسيين سنة 132هـ/ 750م، كانت الأندلس ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية منذ فتحها على يد القائدين طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة 97هـ/ 716م. فأصبحت تابعة شكلياً للخلافة العباسية لفترة وجيزة جداً، لا تتعدى الست سنوات (132 ـ 138هـ/ 750 ـ 756م)، تمكن بعدها الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل» الذي فر من سيوف العباسيين في دمشق، من تأسيس إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت زهاء 173 سنة (138 ـ 316هـ/ 756 ـ 929م)، كرّس بعدها عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» الحكم الأموي مع إعلانه الخلافة الأموية في قرطبة سنة 316هـ/ 929م. وهذا يعني أن الحكم الأموي استمر طويلاً، منذ نهاية عهد الخلفاء الراشدين، سنة 41هـ/ 661م، فهو إن سقط في دمشق سنة 132هـ/ 750م، فقد استمر في قرطبة حاضرة الأندلس حتى سقوطه النهائي سنة 422هـ/ 1031م. وهذا التاريخ لا يشير أبداً إلى سقوط الأندلس، بل إلى سقوط الدولة الأموية نهائياً. وإذا كانت هذه الدولة الأموية قد استمرت في دمشق طيلة تسعين سنة (41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م)، إلا أنها استمرت في الأندلس طيلة أكثر من ثلاثة قرون (97 ـ 422هـ/ 716 ـ 1031م).

الحقيقة، أن الأندلس عرفت عصرها الذهبي مع الحكم الأموي لها منذ حملة طارق بن زياد سنة 97هـ/ 716م حتى وفاة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله سنة

350هـ/ 961م، وبخاصة بعد تحولها من ولاية عربية إسلامية تابعة للخلافة الأموية بدمشق إلى إمارة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية مع الأمير عبد الرحمن الأول «الداخل»، لتشهد عصرها الذهبي الأول مع الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط»، ثم عصرها الذهبي الثاني مع الأمير عبد الرحمن الثالث والناصر لدين الله الذي أعلن الخلافة الأموية في قرطبة سنة 316هـ/ 929م.

لذلك، يبدو أن تكريس الحكم الأموي في الأندلس، يعود الفضل فيه إلى ثلاثة أمراء أمويين حمل كل منهم اسم عبد الرحمن، وكانت وفاة ثالثهم عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» سنة 350هـ/ 961م، بمثابة النهاية الفعلية للحاكم العربي الاسلامي في الأندلس. صحيح أن الأندلس استمرت خمسة قرون واحدى وثلاثين سنة بعد وفاة عبد الرحمن الثالث، إلا أنها كانت تعيش حالات متنوعة من التفكك والانهيار قبل سقوطها النهائي سنة 642هـ/ 1492م. فقد سيطر الحجاب على الخلافة الأموية نصف قرن (350 ـ 399هـ/ 961 ـ 1009م) لتسقط هذه الخلافة سنة 422هـ/ 1031م. ثم دخلت الأندلس عصر ملوك الطوائف طيلة أكثر من قرن ونصف (422 ـ 478هـ/ 1031 ـ 1085م)، وفيه انقسمت إلى دويلات مستقلة، أبرزها دويلة بني حمود في مالقة والجزيرة الخضراء ودويلة بني نجيب ثم بني هود في سرقسطة، والدويلة العامرية الصقلبية في بلنسية ودانية وجزر البليار، ودويلة بني عباد في اشبيلية، ودويلة بني جهور في قرطبة، ودويلة بني ذي النون في طليطلة.

ثم أصبحت الأندلس مجرد ولاية تابعة للمغرب وعاصمته مراكش زمن «المرابطون» (479 ـ 541هـ/ 1086 ـ 1147م)، ثم زمن «الموحدون» (541 ـ 642هـ/ 1147 ـ 1244م)، لتسقط بعدها جميع مناطق الأندلس بما فيها قرطبة واشبيلية، باستثناء رقعة صغيرة في جنوب شرق الأندلس، هي غرناطة، التي قاومت وحدها السقوط طيلة قرنين ونصف القرن، لتسقط بدورها يوم الاثنين أول ربيع الأول 897هـ/ 2 كانون الثاني 1492م، وتضيع معها الأندلس نهائياً، فخسر العرب المسلمون، أهم موقع استراتيجي وحضاري، يمثل البوابة الغربية لقارة أوروبا.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن قراءة الماضي، يتطلب دفع المؤرخين لاعادة كتابة تاريخ الأندلس أو سائر المناطق التي كانت تمثل العالم العربي الإسلامي،

ولا يضير اختلافهم بحثاً عن جوانبه المتعددة، بعد النقد والمقارنة التاريخية، لندرك تماماً أين أصاب الأجداد وأين أخطأوا، كيف تحولت معهم قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس أو بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وقبلهما دمشق عاصمة الخلافة الأموية وبعدهما القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية، إلى منارات عالية سياسياً وعسكرياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً...

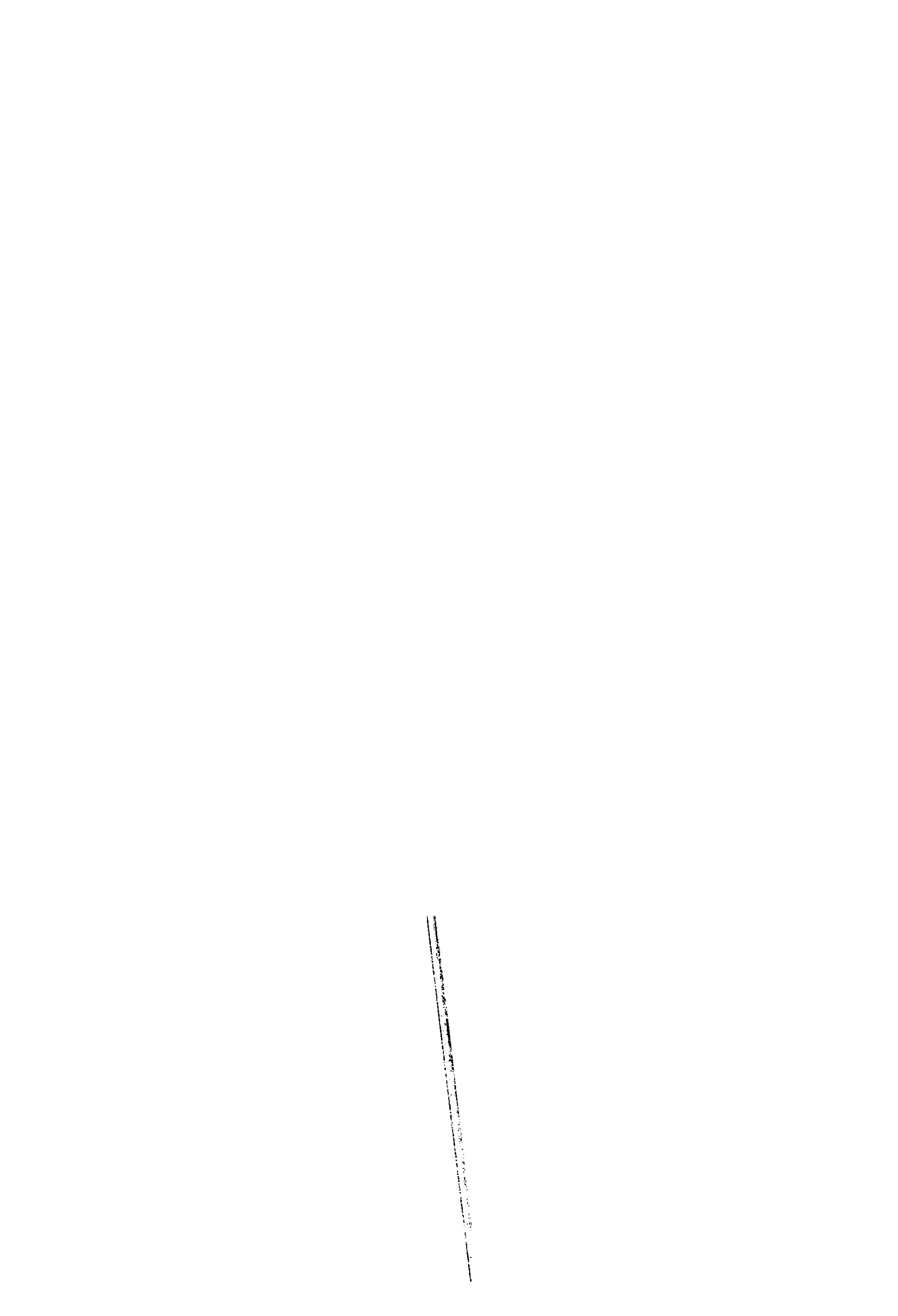
وهذا ما حاولت عمله، بأسلوب علمي ومنهج أكاديمي يعتمد النقد والمقارنة التاريخية، للإحاطة بفتح الأندلس على يد القائد العربي موسى بن نصير والقائد البربري طارق بن زياد، وفشل محاولة القائد العربي عبد الرحمن الغافقي فتح فرنسا، في ما وراء حدود الأندلس. فضلاً عن عهدي عبد الرحمن الأول «الداخل» وعبد الرحمن الثاني «الأوسط»، وعهد عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»، وهي جميعاً تمثل العصر الذهبي للأندلس، وهو صفحة مشرقة من صفحات التاريخ العربي الإسلامي، وأن كان سقوط الأندلس وضياعها نهائياً يوم الاثنين أول ربيع الأول 897هـ/ 2 كانون الثاني 1492م، هو صفحة سوداء من هذا التاريخ العربي الاسلامي.




www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

الملاحق

ملحق رقم 1: ولاة الأندلس
(95 ـ 138هـ/ 714 ـ 756م)
ملحق رقم 2: الأمراء الأمويون في الأندلس
(138 ـ 316هـ/ 756 ـ 929م)
ملحق رقم 3: الخلفاء الأمويون في الأندلس
(316 ـ 422هـ/ 929 ـ 1031م)
ملحق رقم 4: خطبة طارق بن زياد
ملحق رقم 5: إعلان عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة
(الجمعة 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م)



ملحق رقم 1

ولاة الأندلس

(95 ـ 138هـ/ 714 ـ 756م)

1 ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير 95هـ/ 714م.
2 ـ أيوب بن حبيب اللخمي 98هـ/ 717م.
3 ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفي 98هـ/ 717م.
4 ـ السمح بن مالك الخولاني رمضان 100هـ/ نيسان 719م.
5 ـ عنبسة بن سحيم الكلبي صفر 103هـ/ آب 721م.
6 ـ عذرة بن عبد الله الفهري 107هـ/ 725م.
7 ـ يحي بن سلمة الكلبي ربيع الأول 110هـ/ حزيران 728م.
8 ـ حذيفة بن الأحوص الأشجعي.
9 ـ عثمان بن أبي تسعة الخثعمي.
10 ـ الهيثم بن عبيد الكتاني 111هـ/ 729م.
11 ـ محمد بن عبد الله الأشجعي.
12 ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي 113هـ/ 731م.
13 ـ عبد الملك بن قطن الفهري المرة الأولى: 114هـ/ 732م.
المرة الثانية: 121هـ/ 739م.

14 ـ عقبة بن الحجاج السلولي — رمضان 116هـ/ تشرين أول 734م.

15 ـ بلج بن بشير القشيري — 124هـ/ 742م.

16 ـ ثعلبة بن سلامة العاملي — 124هـ/ 742م.

17 ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي — رجب 125هـ/ أيار 743م.

18 ـ ثوابة بن سلامة الجذامي — 128هـ/ 745م.

19 ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري — 129هـ/ 747م.



ملحق رقم 2

الأمراء الأمويون في الأندلس

(138 ـ 316هـ/ 756 ـ 929م)

1 ـ عبد الرحمن الأول «الداخل»	138هـ/ 756م.
2 ـ هشام الأول «الرضا»	172هـ/ 788م.
3 ـ الحكم الأول «الربضي»	180هـ/ 796م.
4 ـ عبد الرحمن الثاني «الأوسط»	206هـ/ 822م.
5 ـ محمد الأول	238هـ/ 852م.
6 ـ المنذر بن محمد	273هـ/ 886م.
7 ـ عبد الله بن محمد	275هـ/ 888م.
8 ـ عبد الرحمن الثالث	300هـ/ 912م.

ملحق رقم 3

الخلفاء الأمويون في الأندلس

(316 ـ 422هـ/ 929 ـ 1031م)

1 ـ عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله»	316هـ/ 929م.
2 ـ الحكم الثاني «المستنصر»	350هـ/ 961م.
3 ـ هشام الثاني «المؤيد»	366هـ/ 976م.
4 ـ محمد الثاني «المهدي»	399هـ/ 1009م.
5 ـ سليمان «المستعين»	400هـ/ 1010م.
6 ـ عبد الرحمن الرابع «المرتضى»	408هـ/ 1018م.
7 ـ عبد الرحمن الخامس «المستظهر»	414هـ/ 1023م.
8 ـ محمد الثالث «المستكفي»	414هـ/ 1024م.
9 ـ هشام الثالث «المعتد»	418هـ/ 1027م.

ملحق رقم 4

خطبة طارق بن زياد

بعد عبور المضيق الذي حمل اسمه، أمر طارق بن زياد بإحراق السفن، ثم أزاح عمامته إلى ما وراء جبينه، وكان ينظر إلى الجند كأنهم رجل واحد، وقد أمسك عنان جواده بيساره، ورفع يمناه والسيف مشرع في قبضته، فأدرك الجند أنه يهم بالكلام، فأصغوا إليه، وهو يلقي خطبته الشهيرة التي استهلها بحمد الله والثناء عليه وحث المسلمين على الجهاد، وفيها يقول[1]:

«ايها الناس، اين المفر؟ إن العدو أمامكم، والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته، واقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا اقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وأن امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وأن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم

---

(1) جرجي زيدان: فتح الأندلس، ص 147.

أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفة الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي. وقد بلغكم من أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. وأعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله أن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا اليوم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون».

ويدور الشك حول هذه الخطبة الشهيرة التي تعتبر قطعة أدبية فريدة يعجز مثل طارق بن زياد البربري على صياغتها، كما يعجز جنوده البربر الذين دخلوا الإسلام حديثاً على فهمها لأنهم مثله من البربر. ولكن مثل هذا التحليل المنطقي، لا ينفي وجود خطبة لطارق بن زياد على عادة القادة الفاتحين، قالها باللسان البربري في هذا الموقف التاريخي لحث جنوده البربر على القتال.

ملحق رقم 5

إعلان عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة
(الجمعة 2 ذي الحجة 316هـ/ 16 كانون الثاني 929م)

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على نبيه محمد الكريم.

أما بعد،

فإن أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه، فنحن، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أساد في الآفاق من ذكرنا، وأعلى في البلاد من أمرنا، وأعلق من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا ــ إن شاء الله، فالحمد لله، ولي الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه. فمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله»[1].

---

(1) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 319.

أولاً : المصادر باللغة العربية

ثانياً : المراجع باللغة العربية

ثالثاً : المراجع باللغة الإسبانية

رابعاً: المراجع باللغة الفرنسية



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

أولاً: المصادر باللغة العربية

1 ــ ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعييني القيرواني

- المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، تونس 1286هـ/ 1869م.

2 ــ ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي الكرم الجزري (توفي سنة 630هـ/ 1233م).

- الكامل في التاريخ، 13 جـ.

القاهرة 1939، ودار صادر، بيروت 1966.

3 ــ ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (توفي سنة 779هـ/ 1377م)

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف بـ «رحلة ابن بطوطة».

دار صادر، بيروت 1384هـ/ 1964م.

4 ــ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن جابر (توفي سنة 808هـ/1406م)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 7جـ.

طبعة بولاق، القاهرة 1284هـ/ 1867م، وطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1958م.

5 ـ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (توفي سنة 681هـ/ 1282م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8 جـ.

القاهرة 1948، ودار صادر، بيروت (1397 ـ 1398هـ/ 1977 ـ 1978م).

6 ـ ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (توفي سنة 257هـ/ 871م)

- فتوح مصر وأفريقية والأندلس.

تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة 1961م.

7 ـ ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد (توفى سنة 328هـ/ 939م)

- العقد الفريد، 8 جـ.

تحقيق محمد سعيد العريان، طبعة ثانية، القاهرة 1953م.

8 ـ ابن عذارى أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (توفى بعد سنة 712هـ/ 1312م)

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2جـ.

تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، بيروت 1950.

9 ـ ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (توفى سنة 276هـ/ 889م)

- الإمامة والسياسة، جـ 2.

النص الخاص بفتح الأندلس.

10 ـ ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)

- تاريخ افتتاح الأندلس.

تحقيق عبد الله الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت (بدون تاريخ).

11 ـ ابن هشام عبد الملك هشام بن أيوب الحميري
(توفى سنة 217هـ/ 832م)

- السيرة النبوية، 4 جـ.

تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبعة ثالثة، بيروت 1971.

12 ـ الإدريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز
(توفي سنة 548هـ/ 1153م)

- صفة المغرب والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو «الروجاري».

تحقيق رينهارت دوزي ودي غويه، ليون 1866م.

13 ـ الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين الأموي
(توفي سنة 356هـ/967م)

- الأغاني، 20 جـ.

طبعة بولاق، مصر 1285هـ/ 1869م.

14 ـ البكري أبو عبيد الله عبد الله بن العزيز المرسي
(توفي سنة 487هـ/1094م)

- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب.

نشر دي سلان، الجزائر 1911م.

15 ـ الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي
(توفى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي).

- الروض المعطار في خبر الأقطار.

نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1937م.

16 ـ الضبي أحمد بن يحي بن عميرة (توفي سنة 598هـ/ 1203م)

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.

دار الكاتب العربي، بيروت 1967.

17 ــ القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم

- الأمالي.

18 ــ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (توفى سنة 450هــ/ 1058م)

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

تصحيح محمد بدر الدين النفساني، القاهرة 1909م.

(القرن الرابع أو الخامس الهجري/ العاشر أو الحادي عشر الميلادي)، مدريد 1867م.

19 ــ مجهول

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم

20 ــ المراكشي عبد الواحد بن علي

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (أي المغرب والأندلس معاً)، كتبه سنة 620هــ/ 1224م.

تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1949م.

21 ــ المقري أحمد بن محمد التلمساني (توفى سنة 1041هــ/ 1631م)

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، 10 جــ.

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1949م.

22 ــ المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (توفي سنة 845هــ/ 1441م)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط).

مطبعة الساحل، الشياح، بيروت 1959.

- السلوك لمعرفة دول الملوك.

تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1353 ــ

1358هـ/ 1934 ــ 1939م.

23 ــ ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله الرومي

(توفي سنة 626هـ/ 1229م)

- معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان، ج 6، بيروت 1979.

ثانياً: المراجع باللغة العربية

1 ــ بيضون إبراهيم

- الدولة العربية في إسبانيا.

دار النهضة العربية، بيروت، طبعة ثالثة 1987.

2 ــ الثعالبي عبد العزيز

- تاريخ شمال إفريقيا

تحقيق أحمد بن ميلاد ومحمود إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1987.

3 ــ زيدان جرجي

- فتح الأندلس أو طارق بن زياد.

منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (بدون تاريخ).

- شارل وعبد الرحمن.

منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (بدون تاريخ).

- عبد الرحمن الناصر.

منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان (بدون تاريخ).

- تاريخ التمدن الإسلامي، 5 جـ.

مراجعة وتعليق حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة (بدون تاريخ).

4 ـ سالم السيد عبد العزيز

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

دار النهضة العربية، بيروت 1981م.

5 ـ شبارو عصام

- الدولة العربية الإسلامية الأولى (1 ـ 41هـ/ 623 ـ 661م).

دار النهضة العربية، بيروت طبعة ثالثة 1995.

- الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود (91 ـ 897هـ/ 710 ـ 1492م).

دار النهضة العربية، بيروت 1423هـ/ 2002م.

6 ـ طرخان إبراهيم علي

- دولة القوط الغربيين.

القاهرة 1958م.

7 ـ العبادي أحمد مختار

- في تاريخ المغرب والأندلس.

الإسكندرية 1968.

8 ـ علي سيد أمير

- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس.

بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم.

دار النهضة العربية، بيروت 1969م.

9 ـ عنان محمد عبد الله

- دولة الإسلام في الأندلس.

القاهرة، طبعة رابعة 1969م.

10 ــ مختار باشا		اللواء محمد (توفى سنة 1315هـ/ 1897م).

- التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، 2 م.

تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1400هـ/ 1980م.

11 ــ مؤنس		حسين

- فجر الأندلس.

القاهرة 1959.

12 ــ أطلس الوطن العربي والعالم

- مؤسسة جبو بروجكتس، بيروت، طبعة سابعة 1996.

13 ــ علي سيد أمير

- مختصر تاريخ العرب

تعريب عفيف البعلبكي، بيروت 1961م.

ثالثاً: المراجع باللغة الإسبانية

1 – Aguado		Bleye

- Manuel de la historia de Espana, T1 Madrid 1947.

2 – Rubio		Julian Mario

- La Espana Visigoda, en Historia de Espana, T2, Barcelona 1932.

3 – Saavedra		Edouardo

- Madrid 1892.

رابعاً: المراجع باللغة الفرنسية

1 – Dosy Reinhart

- Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 v, Leyden 1932.

2 – Levi Provencal (E)

- Histoire de l'Espagne Musulmane, 3T, Leiden, Paris 1950.



الفهرس

الفصل الثالث

فشل فتح بلاد غالة «فرنسا» ونمو حركة المقاومة المسيحية

(98 ــ 114هــ/ 717 ــ 732م)

الفصل الرابع

الامارة الأموية في الأندلس

(138 ــ 316هــ/ 756 ــ 929م)

الفصل الخامس

عبد الرحمن الثالث «الناصر لدين الله» واعلان الخلافة الأموية في الأندلس

(300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م)